أنثروبولوجيا الشـــَّعر والحجاب

منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر

حيـدر إبـراهيم عـلي

obeikan.com

حيدر إبراهيم علي: أنثروبولوجيا الشَّعروالحجاب؛ منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر

مركز الدراسات السودانية

الحضارة للنشر

11 شارع نوال– الدقي **12311** – القاهرة

Al-Hadara Publishing

11 Nawal Street, Dokki 12311

Cairo, Egypt

Mobile: (20-122) 316 48 67

facebook.com/alhadara.books

الطبعة الأولى: يناير 2017

رقم الإيداع بدار الكتب 25385 / 2016

I. S. B. N. 978-977-476-260-8

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

obeikan.com

أنثروبولوجيا الشَّعر والحجاب

منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر

obeikan.com

المقدمة

لا يحتاج الأمر لتأمل طويل، ليصل لنتيجة: أن أشكال شّعر الرأس والوجه، تحمل في أي مجتمع بشري، الكثير من المعاني، والدلالات الخاصة بالوضع الاجتماعي، والشخصية، والمزاج، والاتجاهات، والأدوار، والمكانة الاجتماعية، والأصول العرقية والإثنية.. ويُعتبر الشّعر أول مظهر يقدمه الإنسان- سواء عن قصد أو دون قصد- للتعبير عن شخصيته، وهو بذلك يُخبر الآخرين بالكثير عن دواخله، ونفسيته، ومكانته، ويكشف عن دلالات اجتماعية وثقافية. فالشّعر حامل خصب، وقوي للمعاني، والرموز، والدلالات، والإيحاءات، لأسباب عديدة، من أهمها: أن الشّعر جزء مرن وطيّع من الجسم بصورة غير عادية. فالشّعر لديه إمكانات واسعة في العرض مثل الأزياء والملابس، فهو يتشكل، ويستعرض، ويتلون، ويزاح، ولكنه يتفوق بميزة ظهوره كمكمِّل ثابت للجسد؛ أي عضوي، خلافا للملابس وكونها خارجية. ثانيا: الرأس وشعر الوجه، تحيط كامل الوجه باعتباره مرآة عاكسة لتنوع وظائف التواصل حيث تتجمَّع فيه حواس السمع، والشم، والنظر، والذوق وتتركز من خلاله عملية تواصل واتصال العين مع الكلام. لذلك الشّعر معروض صريح ومباشر، هو فعل اجتماعي ملموس من خلال التفاعل والتواصل.

لازَمَني؛ على مستوى الميل الشخصي؛ اهتمامٌ قديم بموضوع الشَّعر، لأسباب مختلفة، بعضها شخصي بحت أو ذاتي، والآخر موضوعي وعلمي. وكان من بين الأسباب الشخصية تلك المحادثة الموحية، والتي جاءت عقبها عملية التفكير في الكتابة عن الشّعر. فقد دخلت عليّ؛ ذات مرّة؛ ابنتي: (انديرا)، وكانت حينئذٍ في الحادية عشرة من عمرها (مواليد عام1988)، لتسألني بعد أن قامت بتصفيف شعرها عند الكوافير، وكانت هي في طريقها إلى المدرسة:

- **بابا شعري كده حلو؟ أنا عايزة أغيّر!**

وأجبت برد تقليدي كررته عليها كثيرا:

- **المهم يا أنديرا ما تحت الشعر: في مخ ولا ما في؟**
- **ردت سريعا: طبعا في مخ كبير!**

وملأت هذه المحادثة البسيطة والعابرة ذهني بالعديد من الأسئلة والتساؤلات، مثل: ما هي الصلة بين شكل الشعر والتغيير؟ وهل هناك صلة بين جمال الشعر؛ أو عدمه؛ وبين المزاج الحسن والمعكر أو الرديء؟ وهل هذا ما يقصد الفرنجة بـ: (Bad hair day)؟

يُعتقد، بالفعل، أن الكثيرين يتحدد مزاجهم حسب مظهر شعرهم، أو قد يحددون أمزجتهم حسب شكل شعورهم. وكثيرًا ما يربط البعض بين نمو الشعر، ولمعانه، وبريقه، وانسيابه؛ وبين العاطفة، والمزاج. وفي المحادثة السابقة برزت العلاقة بين ما فوق فروة الرأس، وما فيها أو تحتها. فهناك– مثلاً– آراء شائعة تقرن الغباء بالشعر الطويل و/أو الأشقر.

وكانت الحادثة الثانية التي مثلت أيضا دافعا للكتابة، والتساؤل عن الشّعر، ودلالاته الاجتماعية، بالذات القيمية والأخلاقية. فقد كنتُ أجلس في مكتبي بالمنزل قرب الباب الخارجي، فرأيت من النافذة، (وضاحة) بنت أختي (سمية)، وهي مع صديقاتها في حالة هرج خلف الباب، قبل فتحه والخروج للشارع. فتابعت ضجيجهن، فقد كان الشجار حول ما يمكن أن يظهر من الشّعر قبل الوصول للشارع العام. ومما لفت انتباهي شكل ملابسهن الضيقة والمتحزقة، ومع ذلك كان الاهتمام بالشّعر فقط، وليس بقية أجزاء الجسم. فتساءلت في داخلي عن السر أو السحر حسب الثقافة العربية– الإسلامية، والذي يكمن في الشّعر، ويجعله مثيرًا أكثر من الأرداف أو الصدور مثلا؟ وقد لاحظتُ هذا السلوك الغريب كثيرا أثناء عملي في عدد من المجتمعات شديدة المحافظة، وهي تتميز بقدر من التناقض في طرق لبسها، من حيث رؤيتها لما يمكن أن يظهر أو ما الذي يجب أن يُخفى؟

يظهر مدى قوة الثقافة في مثل هذه التصرفات الخاصة بتحديد مواضع الإثارة، والإغراء، والإغواء. ثم يعقب ذلك وضع ضوابط الأخلاق، والقيم، والعيب. فهناك من يرى في الشعر الطويل المرسل إشارة أو دليلا على الانحلال. ففي بعض مجتمعات الثقافة العربية– الإسلامية حين نقول: ماشية على حل شعرها؛ فهذا يعني أن الفتاة "متسيبة" أو "منحلة"، ولا تخضع للضبط الاجتماعي، ولا تلتزم بالقيم السائدة. ويسود هذا الرأي غالبًا بين المحافظين والمتدينين، وبالتالي يمكن أن يتخلوا عن حمايتها لو تعرضت لتحرش أو اعتداء. بينما في مجتمعات أخرى قد يرى البعض، أن الشعر المُطلَق أو المُرسَل دليل علي

الحرية وعدم الالتزام بضوابط المجتمع التقليدية أو المتزمتة. وفي أوربا كان الشعر القصير في فترات تاريخية معينة، دليلا على الخضوع لقيم المجتمع. وأحيانا، قد يرمز الشعر القصير إلى التطهُّرية عموما، بينما الطويل عكس ذلك. وللمفارقة من الجانب الآخر؛ صار الشعر القصير لدى المرأة هو الموضة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، ورمزًا للتحرر، وقصد به المساواة رمزيا، في الشكل مع الرجل.

يُعتبر الشّعر ميدانا للتنافس بين الفرد والمجتمع، أي حسب درجة التمرد، والمسايرة، والإذعان. فمن الملاحظ أن الحركات الاجتماعية المتمردة، أو الثائرة، أو المُجدِّدة، تبدأ الإعلان عن أفكارها، ومواقفها بتغيير شكل الشّعر على الرأس، أو إطلاق اللحية. فالفرد الداعي للتغيير والاختلاف، يدرك أن أشدّ ما يستفز المجتمع- بالمعني الإيجابي أو السلبي للكلمة- ويصدم عينه؛ هو شكل الشّعر. وقد أدرك الخارجون عن المجتمع، والمتمردون، واللامنتمون، أن الطريقة التي يستخدمون بها أجسادهم؛ وهنا الشعر جزء هام منها؛ هي من أنجع الوسائل لتوصيل المعاني والرسائل للآخر. وفي بعض الأحيان، الشّعر رمز الرجل الحر وحتى اللحية، إذ نقول: أطلق شعره أو لحيته (الإطلاق عكس التقييد أو الحبس). وقد أخذ الشّعر الطويل واللحية الكثيفة عند الشباب؛ معنى يرمز للحرية. وخلال ثورة الشباب التي شهدتها أوربا الغربية، أي ثورة 1968، وحتى نهاية سبعينيات القرن العشرين؛ وما بعد ذلك؛ أصبح الشعر الطويل، لفترة معينة، رمزا للاحتجاج ضد المؤسسية أو المؤسسات institutions مثل: الأسرة، الدولة، الدين.

يرى الكثيرون من الذين اهتموا بالدور الاجتماعي والأنثروبولوجي للشّعر، أنه ذو دلالات هامة في إبراز الشخصية وفي تحديد العلاقات الاجتماعية. فالشّعر ليس مجرد زينة أو مظهر خارجي. فالشعر- عمومًا- له معني رمزي لقوة الحياة مطلقا. إذ له قدر من الدوام والاستمرارية لدى الأفراد والجماعات؛ بمعني أنه موجود طوال الحياة البيولوجية للإنسان العاقل، ويستمر في النمو حتى بعد الموت. ويكتسب أصل رمز الشعر لدى الإنسان معنى أعمق. فالشعر، والأظافر، وأصابع القدم، هي آخر ما يفنى في الحياة، وهذا مصدر الغموض والأسرار. ويحتفظ بالمعاني والرموز على مدى الحياة الاجتماعية، وظل بهذه الصورة على مر تاريخ البشرية. ومن ناحية أخرى، يقول الباحثون إن الشّعر شخصي جدًا لأنه ينمو من أجسامنا نحن، وفي نفس الوقت، عام يراه الجميع. وهو

أيضا، طيّع نغيّره كما نريد حسب مزاجنا. لذلك ليس غريبا أن نستخدم شعرنا لعرض شخصيتنا، ويرى الآخرون شعرنا كانعكاس لشخصيتنا؛ خاصة لدى المرأة. وأصبح الشعر مستودعًا للرموز والدلالات، ومهمة الأنثروبولوجي فك غموض الرموز، ثم تفسير السلوك الرمزي في علاقته مع البناء الاجتماعي، والثقافة. ونجد الرموز بوضوح في الطقوس الدينية، والاحتفالات، والمناسبات الاجتماعية. ويحتل الشَّعر موقعا مُهمًّا في أساطير الشعوب، وفي المعتقدات الدينية، وزخرت الآداب والفنون بالروائع الكثيرة المكتوبة، والمرسومة، والمنحوتة، والمسموعة التي تصف وتُجسد جمال ومعاني الشّعر. ولكن لم يحظ بدراسات علمية كثيرة تستخدم مناهج العلوم الإنسانية المختلفة، بقصد فهم وتعميق الإشارات والرموز التي يحفل بها الشّعر. فالشّعر في حد ذاته ليس ظاهرة، ولكن استخداماته، وأشكاله، وأساليب عرضه وصناعته، هي التي تنبه الباحثين للمعاني، والدلالات الاجتماعية للشّعر. وهذا ما يجعل منه ظاهرة اجتماعية وإنسانية جديرة بالاهتمام والدراسة والتفسير.

يدخل موضوع الشّعر في ثنائية الطبيعة والثقافة، من خلال عملية استخدام الفرق بين الكلمات والرموز. فالأولي ذات صلة فقط بالأشياء التي تعنيها حسب ما هو سائد في اللغة؛ أي تصفها كما تدركها فقط. بينما الرموز تزيد على الكلمات، لأنها تستولد إشارات، ودلالات ليست بالضرورة مباشرة من الأشياء المادية. ويلاحظ أن بعض الثقافات، تستخدم الفرق في كون الحيوانات أكثر شعرا من الإنسان، في التعبير عن الاختلاف بين عوالم الطبيعة والثقافة. إذ يتضح أن الأساطير؛ التي تصف الإنسان الأول بأنه كثيف الشعر؛ تربط ذلك بأنه جاهل لاستخدام النار وقواعد السلوك الصحيح مع أقربائه، أي أنه قريب للحيوان بسبب تلك الخاصية. ولكن الرموز ليست مجرد انعكاس آلي للظواهر الطبيعية، ففي بعض المجتمعات، قد لا يكون التقابل الرمزي بين مُشعر وآخر بلا شعر هو تقابل الطبيعة والثقافة فقط، ولكن قد يرمز إلى فئات العمر، والشباب، والشيخوخة. وفي هذه الحالة يرمز المشعر إلى صحة، وحيوية الناس الصغار، بينما يرمز عدم الشعر إلى الصلع والشيخوخة. وقد يكون أيضا، الشعر الطويل رمزا للمرأة لأنه يبدو ناعما ومصقولا. بينما الشعر الملموم مرتبط بالذكور لأنه يُعطي مظهرا قويا وصلبا.

ومن الواضح أن التقابل بين المُشعر وعديم الشعر يعكس عددًا من الرموز والدلالات المتباينة، مثل: الإنسان والحيوان، الشباب والشيخوخة، الذكر والأنثى، التطهري والدنيوي. ويمكن لنفس الاستعمال الرمزي الواحد للشّعر أن يكون له معانٍ عديدة مختلفة في نفس الوقت. وتتكيف الرمزية مع خصائص وتداعيات الأشياء، من خلال صفات وارتباطات، ولكنها، في تزامن لصيق، تتمثل وتهضم هذه الخصائص والارتباطات في نظم ثقافية للمعني بطريقة انتقائية وإبداعية ومتماسكة. ولأن أصول الرموز مادية، فلابد لنا أن ندرك أن الممارسة الرمزية الظاهرة ليست بالضرورة عملية أو وسيلة ملائمة في الوجود والتكيف. ففي بعض المجتمعات الإفريقية مثلا، حلق شعر الطفل قد لا يحمل أي معني رمزي، ويقصد به فقط منع انتشار القمل. ولكن من ناحية أخرى علينا ألا نفترض ببساطة أن التفسيرات العملية؛ مثل دواعي الصحة؛ تكون كافية لشرح الاستخدامات الرمزية للشّعر. وفي محاولة تفسير الاستخدامات الرمزية المختلفة للشّعر، علينا أن ندرك الخصائص والارتباطات الأساسية، خاصة الارتباطات مع الحيوانات، النمو، الحيوية، والشباب والمراهقة مقابل الكهولة وكبر السن. وهذا يعني وجود الكثير من التنوع، كما توجد الكثير من النظريات حول الارتباط بين مجالين اجتماعيين مُهمَّيْن للجسد، هما: الرأس والأعضاء التناسلية. وهذا ما قال به (إلياد)، في بعض كتاباته الأنثروبولوجية.

أما الرمز الجنسي للشّعر، فيمكن بسهولة ملاحظة الدلالات الجنسية الواضحة للشّعر. فظهور الشّعر تحت الإبطين، وفي منطقة الأعضاء التناسلية، دليل على نضج الجسد أو البلوغ. وهو يظهر؛ أيضا؛ كعلامات لقدرة الغريزة. ولكن الشعر في هذه الحالة رمز للجانب الحيواني للجنس. فالشّعر الغزير عند الرجل، يُذكّر بأسلاف الإنسان الشبيهين بالقرود حسب نظرية التطور. وهناك قول مأثور كثير التداول بين المسلمين، حتى ظنه الكثيرون حديثا نبويا، يقول: (بارك الله في المرأة المُقعر والرجل المُشعر!). وكانت تُعلَّق على الشعر أهمية كبيرة في الأديان القديمة والعقائد البدائية، بأن للشّعر معنى القوة الجنسية ويمثل قوة إلهية، وبالتالي رمز الخلود. ويختلف رمز الشّعر، حسب نوعية القيم السائدة في المجتمع، ومن ثم يتحدد الموقف المحافظ والمتحرر. وظل الشّعر منذ القدم، وعند كل الشعوب تقريبا، يتضمن معنى سحريًّا وفي نفس الوقت اعتبر رمزًا جنسيًّا.

يلاحظ الباحثون أن أغلب عمل الأنثروبولوجيين الاجتماعيين يدور حول تفسير السلوك الرمزي. وعند الحديث عن البناء الاجتماعي، تتم ترجمة أجزاء مختلفة للسلوك المحدد ثقافيا الذي نختاره في مصطلحات خاصة، واعتباره رمزا. وهذا واضح في الطقس الديني، حيث يقدم تعميم (فان جنيب) van Geneb لطقوس الانتقال؛ نموذجا كلاسيكيا. وحتى نظرية (Frazer) المبسطة عن التداعي associational theory في السحر، تدعي امتلاك المفتاح الذهبي للتفسير. وذلك حين تؤكد أن جزءا نمطيا من السلوك البشري يعني كذا، أو يرمز لهذا أو ذاك. ويرى (ليتش Leach) أن كثيرا من هذه التفسيرات لا تستند على أساس منطقي قوي (ص177). وهذه التعبيرات التالية، هي ذات شحنات رمزية:

I'll cut your hair, get your hair cut, there is hair, keep your hair on hairy

وقد تستخدم أحيانا للاشمئزاز. وتُفسر رمزية الشّعر على مستويين، الأول نفسي- فردي والثاني ثقافي- اجتماعي. وعلى أي محاولة للفهم لابد أن تعي العلاقة بين الخاص والاجتماعي، وهذا يتطلب الربط جيدا بين النفسي والثقافي عند تفسير الرمزية.

***

كان لابد لي كباحث يعيش في مجتمع عربي- إسلامي، أن ترتبط دراسة الشّعر بظاهرة اجتماعية أخرى، وهي: الحجاب. وهذا الرمز الديني الذي لم يكن يثير أي اهتمام، قبل سنوات قليلة، صار يؤثر حتى على علاقات الدول، وليس داخليا فقط. إذ يُحدد الحجاب الآن شكل التعامل اليومي مع المهاجرين والعمال الأجانب في الغرب. ويؤثر على قوانين الهجرة والإقامة وفرص العمل والتعليم للأجانب. فقد عاد الحجاب بقوة إلى حياة المسلمين، بعد دعوات السفور ورفض الحجاب التي تزامنت مع مشروعات النهضة والإصلاح التي أطلقتها النخب مع بدايات القرن الماضي. وقد أثارت هذه العودة لموضوع الحجاب جدلا واسعا وحادًا. فقد رأى البعض فيها انتكاسة ورِدّة حضارية بينما اعتبرها المؤيدون تأكيدا للهوية في ظروف هجمة التغريب والعولمة. وعلى مستوى الواقع والحياة اليومية، عاد الحجاب بصورة كاسحة تتجاوز النقاش والتفكير. وصار إظهار الشعر أو

ستره موضوعا له الأولوية أكثر من قضايا التنمية، والتخلف، والفقر، والتعليم. ومن يتابع الفتاوى يظن أن المسلمين لم يعد يشغلهم في هذا الكون غير شعور النساء!

اهتم الفصلان الأخيران بسؤال: كيف جعل المجتمع والدين على وجه خاص، من جسد المرأة المسلمة؛ تاريخيا؛ ميدانا لممارسة السلطة؟ وكان الشّعر؛ تحديدا؛ هو محور الاهتمام ومجالاً حيويًّا للصراع حول المرأة. فقد كان الحجاب والنقاب والإخفاء وسيلة قمعية فعَّالة لقهر المرأة، انطلقت من جزء رمزي للسيطرة على الكل. وأدرك التقليديون المحافظون، والحداثيون التحرريون أهمية شعر المرأة، لذلك جاء الاهتمام مبكرا، وفاقت حدة المعركة حوله معارك الدستور والبرلمان! ويمكن القول- بلا مبالغة- أن الشّعر تحول إلى بؤرة صراع الحضارات بين المسلمين وغير المسلمين، ولم يعد مجرد قطعة قماش تغطي رأس المرأة المسلمة. إذ يمكن أن يؤدي أي قرار من دولة غربية يمنع ارتداء الحجاب على أرضها ووفق قوانينها إلى اضطرابات ومظاهرات واحتجاجات عنيفة. ورغم أن الدول الغربية في كثير من الأحيان تمنع ارتداء الحجاب في الأماكن العامة مثل المدارس ومواقع العمل فقط فإن هذا الحذر لا يُغفر لها ولا يُوقِفُ غضب المسلمين المهاجرين. وفي فترة من الفترات انشغلت فرنسا تماما بالحجاب في المدارس، وهذا يرجع لوجود جالية مسلمة كبيرة قادمة من المغرب العربي الكبير. ويعبّر القانون الفرنسي العلماني عن نفسه في قرار المنع بلغة شعرية، حين يقول بمنع "إدخال الرموز الدينية في الأماكن العامة". ثم صدر في عام 2002 قانون حظر الرموز الدينية في المدارس العامة الشهير والذي أحيا النزاع بعد أن خمد قليلا.

رأى البعض في إثارة قضية الحجاب قدرا من الإيجابية، لأنه فتح مجالا لفهم الثقافة الإسلامية، والتعرف عليها، بسبب التركيز الإعلامي. وقد تكون هذه فرصة للحوار والاهتمام بالإسلام والمسلمين، مهما كانت الأسباب والدوافع. وفي نفس الوقت حرص كثير من المسلمين على تقديم صورة إيجابية عن هويتهم، وعمل بعضهم على التعريف بالإسلام من خلال فتح المراكز الثقافية الإسلامية. وتقوم هذه المراكز بمهمة التصدي لقضايا مثل الحجاب، وتسعى حسب أهدافها المعلنة لتحصين الشباب ضد التغريب وعدم وقوعهم في براثن الاغتراب.

أصبح الحجاب والتشديد على شكل الأزياء، من الأدوات الرسمية والمعتمدة قانونيا لممارسة العنف ضد المرأة، في بلدان لم تكن تقبل تلك الممارسات. ففي بلد مثل السودان عُرف بقدر من التسامح والليبرالية؛ بحكم تعدده الثقافي والعرقي وتنوع أقاليمه؛ ولكن تحت دعوى تطبيق الشريعة الإسلامية يتم ملاحقة الفتيات وجَلدُهُنَّ بطرق يقصد بها الإذلال والإهانة والتشهير. وقد تسبب تسريب شريط فيديو جلد فتاة بتهمة التبرج في ديسمبر2010؛ في كثير من الاحراج "الظاهري" للنظام السوداني. رغم أن هذه العقوبة صارت روتينية وتكاد تطبق كل صباح في المحاكم السريعة. وكل هذا العنف والإذلال يتم تحت طائلة ما يسمي بـ: "قانون النظام العام". وفي محاولة يائسة وبائسة من النظام الإسلاموي لفرض الفضيلة ونشر القيم أدخل الحكام عنفا غير مسبوق ضد النساء وحطوا من قدر المرأة. ولكن الأخطر من ذلك كله، أنهم أساءوا للشريعة وللدين حين اختزلوه في عدد بوصات طول الفستان أو عدد خصل الشّعر المكشوفة وغير المغطاة.

***

تقع هذه الدراسة ضمن ما يُسمَّى علم اجتماع الدين، من حيث معالجة التأثيرات المتبادلة بين الدين والمجتمع. فالدين رغم المقدس، والمتعالي، والميتافيزيقي يجد نفسه بشريا واجتماعيا تماما حين يمارسه الناس ويحولونه من تعاليم ونصوص إلى حياة ملموسة ونابضة. فالآيات والأحاديث في الإسلام يفهمها ويفسرها الناس من فقهاء وبشر عاديين "يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق". وهذا ما يصطلح العلماء والمفكرون الاجتماعيون على تسميته أنثروبولوجيا الدين أو اجتماعية العقيدة. فالاجتماعي لا يهمه ماذا قال القرآن أو الحديث، فهذه مهمة الفقيه أو المفسر، ولكن يهتم بماذا فعل المسلمون وكيف سلكوا وفق هذه التعاليم الدينية؟

وفي هذه الحالة يكتسب الدين طابعا تاريخيا ويبتعد عن الطبيعة اللاتاريخية التي يصر المتدينون على إضفائها عليه. فأي دين جديد قد ينجح في القيام بقطيعة معرفية مع ما سبقه من عقائد وفكر، ولكن يصعب عليه إنجاز قطيعة كاملة على مستوى المجتمع والحياة. ففي حالة الموقف من الشّعر والحجاب، انتقلت كثير من العقائد ومظاهر السلوك من مرحلة ما قبل الإسلام ومن ثقافات غير إسلامية إلى الثقافة الإسلامية. ومن خلال عمليات التكيف، والتمثل، والفرز تبنَّى المسلمون كثيرا من العناصر الثقافية غير

الأصيلة، وتعاملوا معها في موضوع الشعر والحجاب والنقاب، ودمجت كأنها من "أصول" الدين. وتتداخل العادة، والعرف، والفرض، والمستحب، والمكروه وغيرها لتكون بنية التراث الفقهي والديني. لذلك، يطالب بعض المشتغلين بالقضايا الإسلامية ضرورة التفريق بين الشريعة الثابتة والفقه. وهنا أيضا لا يكون الاجتماعي مَعْنِيًّا بهذا الجدل حول الأصيل والدخيل في الثقافة السائدة. فهو يهتم بوظيفة هذه الثقافة في بقاء واستمرارية مجتمع معين وحتى حين تتغير هذه الثقافة، فالأسباب تعود إلى عدم قدرتها على أداء وظائفها بالطريقة التي تلبي الحاجات المجتمعية الراهنة. ولا يهتم عالم الاجتماع بالبحث عن صحة الفكرة أو سند الحديث، وتهمه كيف تؤثر رؤية الإنسان للعالم، والطبيعة، والآخر في سلوكه وعلاقاته الاجتماعية.

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

الشَّعر في التاريخ والثقافات

عرفت البشرية منذ فجر التاريخ الاهتمام بالشّعر وتزيينه لارتباطه بالفنون، والسحر، والدين. فهذه العناصر الثلاثة هي مكونات ثقافة الإنسان البدائية منذ تطوره لإنسان عاقل وفاعل وصانع (Homo Sapiens). وقد حملت آثار الحقب التاريخية القديمة أدلة واضحة أن الشعر لم يكن أمر ثانويًا في الثقافات القديمة. وقد عبَّر عرض الشّعر عن تدخل مبكر للإنسان في الطبيعة وعدم الخضوع للفطري والنمطي والثابت. وذلك من خلال التنوع والاختلاف، وهذا ما يميز الثقافي عن الطبيعي. فقد تميزت أشكال وأساليب عرض

الشّعر خلال الحقب التاريخية المختلفة بالتنوع في تمظهرات، وموضات ذات دلالات، ومعانٍ، ورموز عديدة تؤكد إبداع الإنسان وابتكاره وقدرته على الخلق والتجديد. فقد اعتنت المرأة بشعرها منذ فجر التاريخ السحيق، وظهر ذلك الاهتمام واضحا في بعض أقدم التماثيل الآتية من العصر الجليدي (البليستوسيني)، منها تمثال (فينوس ويلندورف (Venus of Willendorf)؛ الذي يعود صنعه إلى حوالي ما بين سنة 24 ألف قبل الميلاد إلى 22 ألف قبل الميلاد. والتمثال يمثل أحد آلهة الخصب، وقد عثر عليه عالم آثار بالقرب من قرية ولندورف في النمسا عام 1908. وتكشف القطعة- على الأقل- عن أن هناك بعض النساء كان لديهن اهتمام بكيف يجب أن يكون شكل شعرهن، كما يفصح عن وجود مفهوم لديهنَّ عن الجمال والجاذبية، لأن شكل شعر الرأس يبدو مصطنعا ومختلفا. كما اكتُشفت تماثيل طينية صغيرة من البوسنة ترجع إلى أكثر من 7,000 عاما، تظهر شعرا بتسريحة مشط. (Wikipedia).

Venus of Willendorf

فينوس ويليندورف

عُرف عن قدامي المصريين اهتمام المرأة بصناعة الجمال والنظافة، والعمل على إظهار جمالها والمحافظة عليه بابتكار كل الوسائل. فقد ابتدعت تسريحات الشعر المختلفة على

مَرّ العُصور، وعرفت كيف تزين نفسها بتسريحات شعرها، فاستخدمت في ذلك الباروكات ذات الألوان المتعددة، وفضّلن: الأزرق، والأخضر، والأشقر، والذهبي. والأطوال المختلفة، منها القصيرة حتى الرقبة، أو الطويلة حتى الصدر، أو مضفورة في جدائل رفيعة، أو "الكانيش" القصير، أو منسدلة على الأذن أو خلفها كما هو مبين في نقوش زوجات رمسيس الثاني، وكذلك بعض صور (نفرتاري) الشهيرة. (سيد كريم، 42 :1994). وكانت المرأة المصرية تعتقد أن الشعر الكثيف هو الأفضل. وقد استخدمت الواصلات، والباروكات، مصنوعة من شعر حقيقي أو من صوف الضأن.

فالمرأة المصرية لم تكن تُظهر شعرها الحقيقي إلا لزوجها. ولكن في الدولة الحديثة، بدأت في إظهار جزء من شعرها الأصفر على جانبي الجبهة مع الباروكة؛ كما ظهر في تماثيل ولوحات الملكة (تي) زوجة (أمنحتب) الثالث، ولم تكن أول أميرة تظهر شعرها مع الباروكة، فقد سبقتها الأميرة (مرسي عنخ) التي ظهرت في صور كثيرة بشعرها الأصفر. ويعتقد المؤرخون أن هذا ربما يعود إلى أن ملوك تلك الفترة قد تزوجوا بأميرات أجنبيات ساهمن في تغيير أساليب الزينة. (نفس المصدر السابق). والمتأمل للتماثيل وصور نساء تلك الفترة يجدها حافلة بنساء بشعورهن الجميلة المنسابة على ظهورهن في شكل قصات بديعة تبتكرها مصففات الشعر المسميات (نشت). كما عرفت المرأة المصرية القديمة (الكوافير) فقد اكتشف عالم الآثار (إيمري) مقبرة في (سقارة) لـ (حتب ما) كبير مصففي الشعر في عصر الأهرامات. (ص43). ووردت في البرديات أسماء مصففات شعر الملكات حتشبسوت ونفرتيتي. وكان للأثرياء حلّاقون خاصون يأتونهم في منازلهم.

استعملت المرأة المصرية الأمشاط، ووضعت دبابيس الشّعر على الخصلات منذ القرن الرابع قبل الميلاد. واستخدمت المشابك المتنوعة من العاج والعقيق والنحاس مع ضرورة التمسك بالتاج الذي يتوسط الباروكة. (نفس المصدر السابق). كما عّرفت "صبغة الشعر"، ومن أول المواد المستخدمة كانت "الحناء" وتسمَّى "بوكر". ويرجع المؤرخون استعمالها إلى ما قبل الأسرات، فقد كان المصريون يزعمون أنها كانت تظلل قبر (أوزوريس) في الجنة، وأن بأوراقها مادة مطهوة ومقاومة لكثير من الأمراض. واستعملت أيضا في طلاء الأظافر، والتبرك بها لطلاء الكفوف والأقدام في مناسبات الأفراح. وقد تنوعت مواد صبغ الشعر، فقد استخرج بعضها من قشر الرمان، والقُرطم، للون الأصفر والوردي، فخلطت

النيلة والعصفر للون الأخضر؛ والذي ظهر في باروكات إحدى أميرات الدولة الحديثة. كذلك عرفوا تثبيت الألوان ودوامها باستعمال بعض مواد بذور شجرة السنط ومسحوق الشبَّة. (ص44).

شهدت بلاد ما بين النهرين العديد من الحضارات، وهذا ما جعل المرأة عرضة لتناقضات عميقة تمتد من شهوانية البغاء المقدس في معابد بابل حتى قسوة الآشوريين. فالآشوريون (2000– 612 ق. م) هم من أقوام الجزيرة العربية التي قدمت إلى وادي الرافدين منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد. وكانت عاصمة الدولة الآشورية هي نينوى، أما بالنسبة لمكانة المرأة عندهم، فقد انخفض مركز المرأة الاجتماعي مُقارنة بمكانتها في الحضارتين السومرية والبابلية، فقد كانت تعتبر مِلكًا للرجل، ولهُ الحق في أن يحرمها من كل ما تملك، ويُطلقها متى أراد. أيضًا كان الآشوريون من أقدم الشعوب الدينية التي أخضعت النساء للحجاب وكان يتضمن ستر الرأس والوجه، وكان يُسمح فقط للمرأة الحُرة أن ترتدي الحجاب، بينما الجواري كانت ترتدين الحجاب عند خروجهنَّ مع سيِّدِهنَّ.

وتصف المرويات سوء معاملة المرأة السومرية وأنها كانت عند السومريين تعامل مُعاملة فظة وقاسية..

هكذا كان حال المرأة في تلك الفترات من الحضارات، كانت قاسيةً عليها جدًّا. وهذا ما دفع بالملك حمورابي لسنِّ قوانين ووضع نظام يصونُ فيهِ الحقوق المسلوبة؛ ومنها حقوق المرأة وتحريرها من العبودية.

كان البابليون ساميين في مظهرهم سود الشعر سمر البشرة، رجالهم ملتحون، ويضعون على رؤوسهم أحيانًا شعرًا مستعارًا وكانوا؛ رجالاً ونساء على السواء؛ يُطيلون شعر رؤوسهم، وحتى الرجال كانوا أحيانا يرسلون شعرهم في ضفائر تنوس على أكتافهم، وكثيرًا ما كان رجالهم ونساؤهم يتعطرون. وكان ثياب الجنسين المألوف مئزرًا من نسيج الكتان الأبيض يغطي الجسم حتى القدمين، ويترك إحدى كتفي المرأة عاريًا، ويزيد عليه الرجال دثارًا وعباءة. ولما زادت ثروة السكان تذوقوا حب الألوان، فصبغوا أثوابهم باللون الأزرق فوق الأحمر أو بالأحمر فوق الأزرق، في صورة خطوط أو دوائر أو مربعات أو نقط. ولم يكونوا كالسومريين حفاة الأقدام بل اتخذوا لهم أخفافًا ذات أشكال حسنة، وكان الذكور في عصر حمورابي يتعممون، وكان النساء يتزيَّنَّ بالقلائد والأساور والتمائم،

ويُحلين شعرهن المصفف بعقود من الخرز. وكان الرجال يمسكون في أيديهم عصيًّا ذوات رؤوس منحوتة منقوشة، ويحملون في مناطقهم الأختام الجميلة الشكل التي كانوا يبصمون بها رسائلهم ووثائقهم. وكان كهنتهم يلبسون فوق رؤوسهم قلانس طويلة مخروطية الشكل ليخفوا بها صفتهم الآدمية. (المصدر: قصة الحضارة/ المجلد الأول/ بابل (Wikisource/org. ar). وقد وضع البابليون في قبور النساء الأمشاط وقوارير العطور وأدوات الزينة ليكون في مقدورهن الحفاظ على مظهرهن وسحر مفاتنهن إبان الموت. وألبسوا الرجال الثياب الفاخرة، وزينوهم بشارات تدل على مكانتهم ليفخروا بها وليواجهوا بها الشياطين.

لذلك ترانا نجد بعض العذر للمصريين إذا وصفوا البابليين بأنهم قوم لم يصلوا إلى درجة كبيرة في الحضارة. والحق أننا لا نجد عندهم ما تشهد به آداب المصريين وفنونهم من رقة أخلاقهم ومشاعرهم. ولما أن وصلت هذه الرقة إلى البابليين وصلت إليهم تحت ستار الانحلال المخنث.. فكان الشبان يصبغون شعرهم ويقصونه، ويعطرون أجسامهم، ويحمرون خدودهم، ويزينون أنفسهم بالعقود والأساور، والأقراط، والقلائد. ولما فتح الفرس بلادهم وقضوا بذلك على عزتهم النفسية، تحرروا أيضًا من جميع القيود الخلقية، وسرت عاداتُ العاهرات إلى جميع الأوساط وأضْحَتْ نساء الأسر الكبيرة يرين أن إظهار محاسنهن أيًّا كانت ليستمتع بها أعظم استمتاع أكبر عدد مستطاع، أصبحن لا يرين في هذا شيئًا أكثر من مجاملة عادية. وإذا جاز لنا أن نُصدِّق هيرودوت فإن "كل رجل من عامة الشعب إذا عضَّه الفقر، عرض بناته للدعارة طلبًا للمال". وكتب كوتنس كورتيس عام 42 ب. م يقول: "ليس ثمة أغرب من أخلاق هذه المدينة. فلسنا نجد في أي مكان آخر ما نجده فيها من تهيئة كل شيء على خير وجه لإشباع الملذات الشهوانية". لقد فسدت الأخلاق وانحلت حين أثرت الهياكل، وانهمك أهل بابل في ملذاتهم فرضوا أن تخضع مدينتهم للكاشيين والآشوريين والفرس واليونان. (نفس المصدر السابق).

اهتم اليونان القدماء بطريقة شعرهم المميزة، وفي الفترة ما بين 1500 حتى 650 قبل الميلاد، كانت النساء اليونانيات يُطلقن شعورهن طويلة بتجعيدات دائرية. ولاحقا، حوالي 500 حتى 300 قبل الميلاد، صارت الموضة ما سُمِّي بالعقدة الإغريقية، وهي

أساسا شعر معقود على شكل كعكة فوق نهاية العنق. وصارت العقدة والكعكة، البدعة السائدة بين النساء اليونانيات.

ويروى أن المقاتلين والجنود الإغريق يُطلقون شعورهم أثناء المعركة. إذ يعتقد هؤلاء المقاتلون أنها علامة انتماء للطبقة الأرستقراطية، ويمشطونه في العلن للتباهي. وخلال القتال، لا يقصون مقدمة الشعر، بل يربطونه إلى الخلف في شكل ذيل حصان، لإبعاده من متناول العدو. وفي القرن السادس تحوَّل اليونانيون القدامى إلى الشعر القصير، ما عدا الإسبارطيين. هذا وقد تمسكت نساؤهم بالشعور الطويلة التي ترمز للحرية والصحة والثروة، بالإضافة للسلوك الحسن. بينما الشعر الطويل عند الرجال علامة كبرياء زائفة. وتذكر الأسطورة اليونانية القديمة أن شعر (أخيل) كان قد أهدي لـ (سبركيوس) إله النهر، والذي قص تكريما له في عودته سالما من طروادة، ولكن نظرا لعلم البطل بأنه ما ينبغي له أن يعود، فقد حوّل القربان إلى (باتروكلوس) الميت ووضع خصلة شعره الأصفر في يد الجثة.

أعطت المرأة في روما القديمة للشعر الطويل قيمة عالية. أمّا الرجال فشعورهم قصيرة، وفي أزمنة سابقةٍ كانوا مثل الإغريق. رغم أن الشعر الطويل، ارتبط في شرق اليونان بالفلاسفة المستغرقين في المعرفة دون أن يكون لديهم الوقت للعناية بالشّعر. وفضَّل أهل روما الشعر القصير، وعندما هَزَم (يوليوس قيصر) الغال، أمر بتقصير شعورهم.

حدثت تطورات قيام أمم مستقلة مختلفة في أوربا، مع سقوط الإمبراطورية الرومانية. وهذه بداية حقبة ما أسماه المؤرخون: العصر الوسيط، والذي يمتد من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر. وقد أسقطت الشعوب الجرمانية، والتي أطلق عليها اسم: البرابرة؛ الإمبراطورية الرومانية، مستغلين ضعف موقف الرومان، فحاصروا مدنهم واستولوا على مستعمراتهم. وكانت البداية قيام القوط الغربيين بنهب روما في عام 410. وقد درج المؤرخون على إطلاق مصطلح "العصور المظلمة" أو (Dark Ages) للدلالة على العصور الوسطى في أوربا، وهي الفترة ما بين الأعوام 400 حتى حوالي عام 1400. وقد استخدم آخرون بعد عام 1034 تسمية "الإمبراطورية الرومانية المقدسة".

كانت هذه التحولات تدشينا لثقافاتٍ جديدة مغرقة في التخلف والعنف معًا. وتميزت هذه الحقبة التاريخية بأثر قوي للكنيسة الكاثوليكية على مختلف جوانب الحياة. وعندما قامت ممالك جرمانية مثل: الفرانك والقوط الغربيين، صارت ملابس الجرمان منتشرة في أُوربا، واندفع الملوك من هذه القبائل؛ وكلهم ذوو شعور طويلة ولحى، وبالتالي تغيَّرت عادات تشكيل الشّعر. فقد أعطى الجرمان قيمة كبرى للشّعر، وحتى التراتب الهرمي العسكري والاجتماعي اعتمد على طول الشعر أو قصره. وكانوا يربطون شعورهم فوق هاماتهم في شكل عقدة، مما يجعلهم يبدون طوالا ومرعبين في المعارك. ومن أعظم الإهانات فقدان الشعر لأنه رمز القوة والسلطة. فكانت تُحلق شعور العبيد والأسرى تماما، فالرأس المحلوق علامة خضوع وإذلال. وتحدد طريقة الشعر المكانة الاجتماعية حسب الحرية؛ أي: التقسيم إلى أقنان أو نبلاء وأحرار. ومن أعلى علامات مراتب الأدب أن ينزع المرء شعرًا ويقدمه للآخر. ومن رموز الإهانة وتقليل القيمة، حلق رؤوس الملوك والنبلاء وإرسالهم إلى الدير. ويسمح لهم بتربية شعورهم مرة أخرى عند استعادتهم لحقوقهم وسلطتهم. واستمر هذا التقليد حتى الأسرة الثانية (768– 800)، فقد أمر (شارلمان) بقص الشعر كعقوبة في بعض الجرائم. ويروى أنه اقترح أن تُقتصر تربية الشارب على الأعيان، بينما يمكن أن يطلق الفلاحون لحاهم.

تغيرت موضاتُ الشعر خلال التاريخ، ولكن هناك فترات تميزت بالميل للاعتدال. وكان للعصور الوسطى عدد من المعضلات تمتد من الحماس الديني، وحتى السحر وأمراض مثل الطاعون الدبلي. وتميزت المرحلة بما يسمَّى: "خوف مرحلة الانتقال والتحول"، القائم على وضعية جدل تطور العلم وهجوم التطرف الديني. وكانت من السياسات المفضلة والسائدة ألّا تزعج خالقك. وهذا يعني أن تظهر معتدلا ومتدينا في كل الأحوال. لذلك، اعتبر استعراض الشعر مزعجًا ومبهرجًا.

في العصور الوسطى، ارتبط الشعر القصير في أوربا، بالقنانة وحياة الفلاحين، بينما نسب الشعر الطويل للأحرار والنبلاء. وانتشر هذا الأمر بين قوط ألمانيا، والفرنجة (الميروفيون). وقد تميز شعر (النورمان) في تلك الفترة بالقصر، أو كان مقصوص الجوانب والقفا– من الخلف. أمّا النساء، فقد تغير الشّعر مع الموضة. ففي البداية، كان طويلا، وسيّالا، وظاهرا. ثم أصبحت الضفائر الطويلة موضة. بعد ذلك جاءت تغطية

الشعر من النظر حسب غطاء للرأس يُسمَّى (Wimple) أو الخِمار. وتغيّر أسلوب الشعر وصارت تعرض تسريحات ملفوفة مثل شكل الكعكة على كل جانب من الرأس. ومن أشكال العناية والتفضيل: الشعر المصقول الأملس، يقسم في المنتصف ويعرض على مقدمة الشعر، فوق الجبهة. وما تبقَّى من الشعر يُغطَّى بقلنسوة. ويُقص شعر الراهبات بطريقة غير منسقة، وباقي الشعر يُغطَّى بالخمار أو الحجاب. أما الرهبان، فيحلقون الرأس جيدا، وتميزون بشعورهم المقصوصة تماما غير شريط من الشعر حول الرأس. وحلاقة الرهبان رمز لترك الدنيا، كما أنها دليل على تمتعهم بموقع ديني محترم.

وصف المؤرخون (الفرانك) بأنهم كانوا يربطون شعورهم؛ ذات اللون الرمادي الكتاني؛ فوق جباههم في شكل خصل، تترك لتسقط خلف الرأس مثل ذيل الحصان. ويُحلق الوجه جيدا غير الشاربين. ولا يُحلق شعر أبناء ملوك الفرانك، ومنذ صباهم يُطلق شعرهم بأناقة علي أكتافهم، ويُقسم عند الجبهة، ويُسقط الشعر بالتساوي على الجانبين. ومن مظاهر اهتمامهم بشعرهم، أنه كان يُنثر عليه غبار الذهب.

التزم الفرنجة بعاداتهم القديمة، وبسبب إطلاق الشّعر الطويل، تخلوا تدريجيا عن حلاقة الوجه. وفي البداية تركوا خصلة صغيرة على الذقن، ومع الزمن ازدادت، وفي القرنين السادس والسابع ظهرت اللحي. وقد سادت بين الكهنة عادة حلق هامة الرأس، كما تفعل بعض الطوائف الدينية الآن. وظل القساوسة يُطلقون لحاهم ولكنهم تحفظوا على انتشار اللحى بين العامة. وقد تم تعديل اللحية التي أطلقت كاملة في القرن الثاني عشر، بدرجات في الشكل والطول. ففي البداية، حلقت في مواقع وغطت نهاية الذقن. ولكن الموضة بعدها، أن تقرن مع الشارب. عمومًا الشوارب صارت خارج الموضة. ونجد؛ حسب المؤرخين؛ أن اللحى تطلق بين أهل الريف، رغبة في الاحتفاظ بذكرى اشتراكهم في الحروب الصليبية. مع نهاية القرن الثاني عشر حلقت كل الذقون. (Middle Age Hairstyle –website).

وكان الأيرلنديون (الغال)– رجالاً ونساءً– يفتخرون كثيرا بالشعر الطويل. وكانت تُفرض غرامة كبيرة على من يقص شعر شخص آخر دون إرادته. وعندما حكم الأنجلو– الرومان والإنجليز، أيرلنده صار الشعر يرمز للولاء. فالأيرلندي الذي يقص شعره قصيرا، يعتبر باحثا عن تراثه الأيرلندي. بينما يعتز الإنجليز الاستعماريون بشعورهم الطويلة،

باحثين عن دور كرعايا إنجليز، رغم أنهم استسلموا للحياة الأيرلندية. لذلك، كان الشعر الطويل من أهم الوسائل السائدة للحكم علي الإنجليزي الأصيل. وفي تلك الفترة، كان المسلمون في المناطق المسيحية يُؤمرون بترك شعرهم قصيرا ومفرّقا، لأن أسلوب الشعر الطويل يعتبر تمردا وبربرية. وفي اليابان القروسطية- أثناء حقبة الهاين (Heian) لم يهتم السادة بتفاصيل الجمال الجسدي للمرأة، إذ نادرًا ما وجدوا الفرصة لرؤيته. ولكن كانت الصفة الجسدية التي اهتموا بها هي الشّعر، وكانوا يفضلون أن يكون كثيفا وطويلا على أن تكون هي نفسها طويلة.

في عصر النهضة عادت النساء إلى بعث الأساليب التي سادت بين الرومان واليونان مع بعض الابتكارات بإضافة الحجارة الكريمة، أو اللآلئ، أو الأشرطة. كما عرفت الصبغة والعطور للشعر.

وصلت الموضة قمتها في أُوربا الغربية بين عاميْ 1770 و1790، حين بالغت النساء الثريات في تزيين شعورهن وتنسيقها في أشكال عالية. ويمضين الساعات في هذا العمل. وبدأ التخلي عن هذه الطرائق المعقدة قبيل الثورة الفرنسية، أو قد يكون بسببها. وتقدم (روز ويتز) صورة لما بدأ يحدث عبر الأطلسي، في الولايات المتحدة الأمريكية، عقب تلك الفترة مباشرة. فالأفكار عن شعر المرأة هناك، انقسمت حسب خطوط عرقية واضحة: نساء الأمريكيين الهنود، نساء الزنوج ثم البيض. بالنسبة لفتيات الهنود فُرض عليهن في الداخليات قصُّ جدائلهن الطويلة، وحين يعدن في العطلات إلى قُراهُنَّ يلتزمن بأشكال شعر القبيلة السائد. وهناك الكثير عن الصراع الثقافي لدمج الهنود الحمر، وقد طال ذلك الشعر والشكل والموضة. أما بالنسبة للزنوج أو الأمريكان السود، فقد كانت أساليب الشّعر لديهم- مثل الهنود الحُمر- تشير أو توحي إما للتحرر من أو الخضوع إلى هيمنة ثقافة الأمريكيين البيض. وحتى بدايات القرن التاسع عشر، قدم أسلوب وشكل الشّعر واحدة من الوسائل القليلة المتاحة "للعبيد" السود، للتعبير عن الكرامة والهوية. وقد انتهز كل من الرجال والنساء هذه الفرصة لتنويع طول وتكوين شعورهم بخلق تشكيلة واسعة من الأساليب والأشكال ذات الخصوصية، المقتبسة من ثقافات وموضات إفريقية وهندية، ومن البيض أيضا. وبعد ذلك دخلت ماكينات جديدة لزراعة القطن، مما زاد الإنتاجية وتسبب في طول مدة عمل "العبيد"، ولم يعد لديهم الوقت الكافي للحفاظ على

الموضات والتقليعات. وحرصًا على تلبك وتعقد الشعر؛ قامت النساء بقص شعرهن قصيرا، وتجديله في كتل صغيرة، ولفه في خرق وتغطيته بمنديل مزدان برسوم زهور. وهذه المناديل منحَتْهُن الفرصة الوحيدة للتعبير عن الذات. وفي أيام الأحد فقط، يمكن لهن تسريح الشّعر بشكل مبتكر. وظل الشّعر عاملا مركزيًّا في تأكيد هوية النساء السود. فالرجل الأبيض يفضل اغتصاب ذوات الشعر غير المجعد والبشرة الفاتحة. وكثيرا ما قامت النساء البيض بقص شعور أمثال هؤلاء خشية غواية الرجال البيض (Weitz: 10-6).

خلال القرنين 16 و17 انتشرت موضة الشعر الطويل بين الإنجليز والفرنسيين، رغم أن الكنيسة الكاثوليكية كانت ترى من الأنسب للرجل الشعر القصير، والطويل للنساء. ولكن الملوك أدخلوا الموضة رافضين الشعر القصير وقلدهم الناس العاديون. وأعلن رجل الدين (ولفستان) عن قلقه بأن أصحاب الشعور الطويلة سيحاربون مثل النساء وبالتالي يعجزون عن حماية إنجلترا. ونفس هذه الفكرة نجدها عند بعض القادة الحربين في التحالف الأمريكي (الولايات الإحدى عشر التي انفصلت عن أمريكا 61-1865) كان الفرسان والحكام يقصون- أحيانا- شعورهم، أو يسحبونه للخلف تعبيرًا عن الحزن أو الندم. أما شعر الحرس وحاملي الدروع، فهو عادة أقصر من شعر الفرسان. خلال هذه الفترة كان المسيحيون الشرقيون يطلقون شعورًا ولحى طويلة. وكان العرب البدو يُطلقون شعورهم، ولكن الظاهرة تراجعت مع الأثر الغربي؛ أي دخول الاستعمار. واعتبر إطلاق الشعر في معظم هذه المجتمعات مظهرا أنثويا وقد يجلب لصاحبه تهمة الشذوذ الجنسي.

فكأنهم- ذهنيا ورمزيا- يقطعون عضوهم التناسلي بقص الشعر، حتى ولو فُهم أنهم يفترضون عدوانية بديلة وتعويضية. ومن الجدير بالذكر أن الاثنين ظلا في صدام. (1951: 71).

****

كان الشعر الطويل هو السائد بين الرجال قبل الحرب العالمية الأولي، عدا ما يُفرض في المؤسسات النظامية: الجيش، الشرطة، وغيرهما من المؤسسات التي تتطلب الطاعة والنظام. وكان يفرض على الرقيق والمهزومين في الحرب حلاقة رؤوسهم. كما كانت خنادق الحرب (14-1918) مصدرًا لغزو البراغيث والقمل، مما أجبر المقاتلين على الرضوخ لأوامر قص الشعر، ثم استمرت كعادة بعد ذلك.

كان سكان أمريكا الأصليون يُطلقون شعورهم قبل وصول الأجانب والغزاة. وكان قص الشعر يعتبر علامة خضوع واستسلام للنفوذ الغربي. لذلك، اتخذ الشعر الطويل رمزا للمقاومة والرفض، وبالتالي رأى الغربيون في ذلك عصيانا علي مجتمعهم المتحضر. وقاوَمَ الأفارقة الأمريكيون فكرة اعتبار البيض شعرهم قبيحًا. وجاءت ميول تقويم الشعر، وحاولت نساؤهم جعل شعرهن غير مُجعَّدٍ ومسدولا، فابتكرن أساليب وموضات عديدة: جدائل، خصل، ملفوف، مقصوص، طويل، مجعّد. فقد كانت الضغوط الاجتماعية قوية عليهن لتفضيل الشعر الطويل، لذلك لجأن للموضة والاختلاف.

كانت أوضاع النساء الأمريكيات أفضل كثيرًا من نساء الهنود الحمر والزنوج، ولكنها ظلت أوضاعهن أدنى كثيرا بالنسبة للرجال البيض، ففي حوالي 1830 فقط صار لهن حق التملك وصرف أجور. ولم ينلن حق التصويت إلا في عام 1920. وكانت فرص عمل النساء قليلة ومحدودة في التعليم والتمريض، وبأجور غير مجزية. وكان أغلب المخدمين يشترط على النساء الاستقالة في حالة الزواج. ولهذا، لم يكن لدى المرأة العادية؛ في تلك الفترة؛ لا المال ولا الوقت لكي تهتم بالموضة والعناية بالشّعر. وفي نفس الوقت، كانت نساء الطبقات الوسطى والعليا، يبذلن مجهودا كبيرا لتنظيم شعورهن بالطريقة التي تؤكد الجاذبية الأنثوية.

في مطلع القرن العشرين عرف شعر النساء البيض تغييرا دراميا مع صعود القَصَّة القصيرة، التي تعرف بـ (bbo). وهي قصة ينزل فيها الشعر مسدلا إلى قرب منتصف الرقبة، ثم تثني النهايات– وهناك قصة أقصر من هذه تسمَّى (shingle). وكانت القصتان قصيرتين بصورة صادمة، ليس هذا فقط بل تنقصهما أي جدائل أو تجعيد يوحي بالأنوثة. هاتان القصتان عرفتا على شاطئ الأطلسي، خلال الحرب العالمية الأولى، وخلال عقد من الزمان أصبحتا معيارًا للموضة بين النساء صغيرات السن. وقد تعرضت موضات الشّعر القصير لهجوم كاسح باعتبارها بينة على الغرور والخيلاء الأنثوي والأخلاق المنحلة، أو الأفكار النسوية الخطيرة. وظهرت آنذاك، مقالات في الصحف تروي قصص مخدمين يرفضون تشغيل ذوات الشعور القصيرة باعتبار أنهن "غير جادات في التفكير في شؤون العمل بل يردن قضاء وقت ممتع". ومقالات أخرى، عن رجال يضربون أو يهجرون زوجاتهم أو خطيباتهم بسبب شعورهن المقصوصة. وعمت الحملة العالم كله،

ففي تجمع لمصففي الشّعر الوطنيين، أعلن متحدث: "ليس كل قصيرات الشّعر فاجرات، ولكن كل الفاجرات قصيرات الشّعر!" (النيويورك تايمز19/8/1924، راجع ويتز، ص12-13) .

خلال خمسينيات القرن الماضي أطلق شعراء مجموعة البيت (Beat) شعورهم كما فعل ذلك كثيرون في ثقافة المثليين الحضرية. ولكن الشعر الطويل كموضة كان بعيدا عن أن تصبح شعبية ومنتشرة. وفي 1960 كانت مجموعات صغيرة من الوجوديين في نيوكي وكورنول وإنجلترا (ويز جونز)، من أصحاب الشعور الطويلة المنسدلة إلى أدنى أكتافهم، مما لفت الانتباه وأثار الاشمئزاز في نفس الوقت. ثم ظهر (البيتلز) الذين ساعدوا في نشر موضة الشعر الطويل. وصار لوسائل الإعلام الجماهيري- بالذات السينما والتلفزيون- أثر قوي في انتشار موضات الشّعر المتغيرة.

وفي الستينيات من القرن الماضي، أحيت شعبية الريغي الجمايكي وموسيقى بوب مارلي؛ الإعجاب عالميا بالشعر الغزير المجدول ((Dreadlocks، وتسمي الراس أو الجاتا (Jata) بالهندي. وشكلها لفائف ملبدة ومعقدة انتشرت عالميا، وتتنوع حسب سبيبة أو نوع الشعر الذي يُطلق حسب نموه ودون تدخل فيه بالحلاقة مثلا. ويفضل أن يكون مهملا تمامًا، مما يتماشى مع فكرة الطبيعة بلا اصطناع؛ التي عرفت تاريخيا لدى كثير من الشعوب المجدولة الشعر مثل الشعوب السامية والهندو-أوربية في الشرق الأوسط وآسيا الصغرى، والقبائل الأسكتلندية، وبعض القبائل في نيبال والهند؛ خاصة بين المتصوفة. البوذي يمكن له إطلاق شعره، ولكن الكهنة لابد لهم من حلاقة رؤوسهم.

وكان الشعر المجدول رمزا يمثل فلسفة الراستا (Rastafari) المعادية للمؤسسية مطلقا، وقد تردد صداها كثيرًا في زمن الريغي، وتوافقت مع ميول شباب كل الثقافات خاصة بين الأمريكان الأفارقة، والسود الآخرين، كذلك البيض الرافضين. وفي الثمانينيات، كان الشعر المجدول إشارة متفردة للموقف المضاد سياسيًا وثقافيا لما هو سائد. والآن الشعر الطويل منتشر بين عشاق الروك. وقد يطلق الشعر بغرض التبرع لمنظمة ما، مثل جمعية خصل للمحبة (Locks of Love) التي تهدى للمصابين بالثعلبة أو تساقط الشعر.

المعتقدات والطقوس

زخرت العقائد الدينية في الثقافات المتعددة؛ وبمختلف درجات تطورها؛ بأفكار سحرية وأسطورية عن أسرار الشّعر، وإشارات لتفسير غموضه. فقد تمحورت كثير من المعتقدات في الشّعر كمصدر قوة عند الرجل. وفي معتقدات أخرى، هي منبع سحر، وجاذبية، وإغراء، وإغواء عند المرأة. وقد نسجت حول هذه المعتقدات الكثير من السرديات والأساطير. فمن أشهر وأقدم ما وصل إلينا من العهد القديم، عن علاقة القوة والشّعر قصة (شمشون بن منوح) المشهور بشمشون الجبّار، البطل الشعبي الأسطوري، المعروف بقوته الخارقة، في إسرائيل القديمة، وقد ولد في مدينة (غزة). فقد جاء في سرد القصة أن (شمشون) اليهودي أحب الفاتنة (دليلة) الفلسطينية، ولكنها تواطأت مع بعض سادة البلد من الفلسطينيين، وطلبوا منها أن تستدرجه حتى تعلم منه سر قوته، وستكون لها مكافأة ثمينة. وكان يكذب عليها كلما سألته عن سر قوته، ويبدو أنه في إحدى المرات، كان في حالة صفاء أو استسلام كامل، فأسَرَّ لها بمصدر قوته: *"ولما رأت دليلة أنه قد أخبرها بكل ما بقلبه، أرسلت فدعت أقطاب الفلسطينيين وقالت أصعدوا هذه المرة فإنه قد كشف لي كل قلبه. فصعد إليها أقطاب الفلسطينيين وأصعدوا الفضة بيدهم. 19 وأنامته على ركبتيها ودعت رجلا وحلقت سبع خصل رأسه وابتدأت بإذلاله وفارقته قوته. 20 وقالت "الفلسطينيون عليك يا شمشون". فانتبه من نومه وقال "أخرُج حسبَ كل مرة وانتفض". ولم يعلم أن الرب قد فارقه. 21 فأخذه الفلسطينيون وقلعوا عينيه ونزلوا به إلى غزة وأوثقوه بسلاسل نحاس وكان يطحن في بيت السجن. 22 وابتدأ شعر رأسه ينبت بعد أن حلق 23 وأمّا أقطاب الفلسطينيين فاجتمعوا ليذبحوا ذبيحة عظيمة لداجون إلههم ويفرحوا وقالوا قد دفع إلهنا لبدنا شمشون عدونا. 24 ولما رآه الشعب مجدوا إلههم لأنهم قالوا قد دفع إلهُنا لبدنا عدونا الذي خرب أرضنا وكثّر قتلانا. 25"* (سفر القضاة، إصحاح 16). وتقول الشروح الشعبية إنه؛ وفي أثناء إقامته في السجن مكبلاً بالسلاسل؛ راح شعر رأسه ينمو رويدًا رويدًا. ولم يطُل الوقت كثيرًا حتى استرجع شمشون قوته. وبينما الفلسطينيون يحتفلون بالإله داغون (إله القمح) ويمرحون في المعبد وعددهم يربو على ثلاثة آلاف رجل وامرأة، عمد شمشون إلى جذب السلسلتين اللتين توثقان

ســاعديه، وكانتا مربوطتين إلى عمودين من أعمدة المعبد، وصاح: "عليّ وعلى أعدائي يا رب". وفي تلك اللحظة انهار المعبد على الرؤوس، وقتل كثيرون بينهم شمشون نفسه. (ملف فلسطين، صحيفة السفير البيروتية آذار2013).

تُعتبر الثقافات الساميَّة من أغنى الموروثات القديمة في أساطير الشّعر ومعتقداته. وفي هذا الصدد، يكتب (سميث) في محاضراته عن الديانة السامية: "إن قطع جزء من لحم الجثة في الحداد عند العبرانيين والعرب وعند غيرهم من الشعوب القديمة والحديثة على السواء ليرتبط بعملية حلق الرأس أو جز خصلة من الشعر وإلقائها في القبر أو على رماد الجثمان" (ص: 2-353). ويشير إلى أن هذه الطقوس، قد كانت عند العرب قاصرة على النساء. أما العبرانيون فلم تكن عادتهم حلق الرأس كلها، بل الجزء الأمامي فقط. ولا يوجد لدى العبرانيين ما يُثبت وضع الشعر على القبر. أما في الجزيرة العربية، فقد كان هذا يحدث في عصور ما قبل الإسلام، وقد أكد بعض الرحالة في فترات لاحقة، أن بعض قبائل البدو تمارس تلك العادة. ومن السمات المميزة للعادة، عربيا، أن الثكلى في المأتم، بعد حلاقة شعر رأسها، كانت تربطه بالسّقاب وهي قطعة قماش ملطخة بدمها. وتقول الخنساء:

لما استبانت أن صاحبها ثوى حلقت وعلت رأسها بسقاب

ويلاحظ أن لفظ حلاق وحالق لها معانى ترتبط بالموت والفناء والهلاك. إذ نجد في القاموس مثلا: هوى من حالق؛ أي: هلك، والحالِق من الرِّجال: المشئوم على قومه، والحالِق من السُّيوف ونحوها: القاطعُ الماضي، وحلق القومُ أعداءَهم: قتلوهم أو أهلكوهم، وحلق فلانًا: أوجعه.

هذا، وقد ظلت عادة تقديم الشعر شائعة بين الساميين وغيرهم من الشعوب القديمة لا في الحداد وحسب، بل في مراسيم عبادة الآلهة، وتفاصيل الطقوس. وهي في الحالتين- الحداد والعبادة- متطابقة لدرجة تجعلنا على يقين من وجود مبدأ واحد وراءهما. فنساء العرب كن يضعن شعرهن على قبر الميت، وبين السريان يقطع الفتيان والفتيات جدائلهم ويودعونها في علب من ذهب وفضة في المعابد. ونجد في بعض الكتابات اللاحقة من يجعلون الأمر يبدو وكأن الفتيات يقدمن خصلهن والفتيان لحاهم. وفي سفر اللاويين (19/27) وقد شُرحت هذه الفقرة التي تقول: "لا تتركوا شعوركم تنمو" كما يلي: "أن عادة

الوثنيين جرت على ترك الشعر دون قص لبعض الوقت، ثم يحلقون رؤوسهم بالمعبد أو بجوار عين مقدسة في يوم معين". وكان العبرانيون في حدادهم يحلقون الجزء الأمامي من الرأس، وكان العرب في عصر هيرودوت يفعلون ما يُشبه ذلك تكريما لإلههم (أورتال) الذي كان من المفترض أن يكون شعره على نفس الصورة. وهذه الطريقة وجدت في أماكن أخرى؛ منها بعض بقاع آسيا الصغرى. وفي (دلفي) كان فتيان اليونان يهدون شعر الطفولة الطويل قربانا. ويقال إن (تثيوس) لم يقص إلا خصلة جبهته بالمعبد. وكانت هذه هي طريقة تصفيف شعر المحاربين عند القوريطين. لذا، من المفترض أن الأطفال كانوا يتركون خصلة الجبهة تنمو ثم يتقربون بها لدى بلوغهم طور الرجولة، بنفس المنطق الذي تُعتبر به ذؤابتا العارضين عند العرب علامة على الطفولة. وفي بعض الحالات يبدو الطقس مرتبطا بتحويل الصبي من عشيرة الأم إلى عشيرة الأب. (سميث، نفس المصدر السابق، ص352-354 والهوامش29 و30 و31).

عرفت طائفة "الحريديم" (تعني التقي) أو اليهود الأرثوذكس المتزمتين أو المتطرفين، وهم يمثلون 10% من السكان، بالتزامها الصارم بطقوس ومظاهر ذات صلة بالشعر (اللحي، الضفائر الأذنية، طاقيات الرأس) لتأكيد الالتزام والتمسك القوي بتعاليم الدين اليهودي. حيث يُطلق الرجال ذقونهم حتى تصل إلى صدورهم، كما يرسلون شعورهم حتى تتدلى من خلف آذانهم في شكل خصلات شعر مجدولة. وترتدي نساء الحريديم ملابس تشبه النقاب الإسلامي يسمَّى (frumka) مما يعني عدم ظهور أي جزء من شعورهن. وتعتبر الطائفة الختان والحلاقة الأولي من علامات التدين والهوية الذكورية في نفس الوقت. (يورام بيلو، 45 :2002). وترتبط حلاقة الرأس الأولي في سن الثالثة بدخول عالم الدراسة "وبرغم أن هذه الممارسة الطقوسية أقل إلزاما من طقوس الختان فإنها طقس مرور بالغ التأثير عاطفيا، يزخر بالرمزية الثقافية وينطوي على تحول جسدي درامي. وهذه الخصائص تجعل طقوس حلاقة الرأس الأولى علامة بارزة على الطريق إلى الرجولة بين اليهود الأرثوذكس المتطرفين، تتبلور حول القيمة السامية لدراسة التوراة". (نفس المصدر السابق).

تترك سائر الجماعات والطوائف اليهودية الأرثوذكسية المتزمتة، شعر الأطفال الذكور حتى سن الثالثة بلا تزيين. ويقام حدث الحلاقة الأولى في عيد ميلاد الطفل الثالث أو

خلال مهرجان (لاغ بعومر) في اليوم الثالث والثلاثين بعد عيد الفصح في السنة الثالثة نفسها من عمر الطفل. تقام طقوس الحلاقة في فناء ضريح الحاخام شمعون، في أجواء احتفالية صاخبة من الرقص والغناء، كمقدمة للحلاقة الطقوسية. ويكتب: "ويكون الآباء مجهّزين بالمقصات التي تُربط أحيانا حول الرقبة، وبأكياس بلاستيكية لجمع خصلات الشّعر المقصوص فيها، وبالنبيذ والكعك لتوزيعهما على الحاضرين. وهم يمسكون الأطفال بأيديهم بينما تُمرَّر المقصات على الأقارب والضيوف الكبار الذين يُمنح كلٌّ منهم شرف قص خصلة واحدة بدءا بشعر مقدم الرأس". [يقام المهرجان بمناسبة "حلولة" (إحياء ذكرى وفاة) الحاخام شمعون بار يوهاي، وهو شخصية مرموقة من القرن الثاني، ويقال أمه مؤلف الـ: زوهار (كتاب الإشراق)؛ النصوص الشرعية للروحانية اليهودية]. (ص63). ولكن طقس الحلاقة؛ رغم محوريته في هذا الاحتفال؛ فإنه في الحقيقة يهدف إلى تكوين علامة "البايس" أو الخصلات الجانبية، وتسمَّى أيضا الأذنية لأنها تظهر بشكل بارز فوق الأذنين. ويكون الفرق في شكل الطفل واضحًا: ما قبل وما بعد الحلاقة، وتمثل انفصالا حقيقيًّا عن الأم. وهنا ممارستان في طقس حلاقة الرأس: إطلاق الخصلات الجانبية وجز شعر الرأس. ويعتبر من الأوامر التوراتية: "لا تقصّروا رؤوسكم مستديرا ولا تُفسد عارضيك". (سفر اللاويين 27 :19). ويراها بعض الحاخامات فريضة توراتية.

يكتمل طقس الحلاقة كما يلي: "وكثيرا ما يوزن الشّعر المقصوص ثم يُرمى في حلقة من النار على قمة الضريح. وتُوزَّع لاحقا صدقات على المساكين بمقادير مساوية لوزن الشّعر. وتؤخذ خصلة شعر عادة إلى البيت من باب التذكير بالحدث. وهي إذ تُحفظ في كتاب من كتب الصلاة يُمكن أن ترافق صاحبها طوال حياته". (نفس المصدر السابق).

تقدم لنا الثقافات التقليدية رصيدًا لا ينفد من المعتقدات والأساطير المتعلقة بالشّعر، مما يؤكد فرضية تأثير الشعر على نفسية وشخصية الإنسان رغم التباعد المكاني والتاريخي. ففي إفريقيا وآسيا وأستراليا، نجد كثيرا من الجماعات منشغلة بالتعامل مع الشّعر، ويبدو لنا الأمر هامشيا وانصرافيا وتافها، ولكن المسألة نسبية تماما. إذ يُعطَى الشّعر أهمية قد لا تبدو منطقية لدى آخرين. وعلى سبيل المثال، عند الأستراليين الأصليين، فمن المسموح شد خصلة من شعر الجثة بدلا من قطع جزء من لحمها. ولأن الشعر عند هذه الشعوب يعتبر جزءا حيويًّا وهاما من الجسد، وبالتالي فهو موضوع كثير

من الغيبيات والخرافات. ومنها أن شعر الحي يُودَع مع الميت وشعر الميت يظل مع الأحياء كرابط دائم يصل بينهما. من ناحية أخرى، جرى الفهم والاعتقاد على اعتبار الشعر من صفات الحيوانات، وأن نمو الشعر على الرأس نمو للحيوية. لذلك ليس غريبا أن يكون الشعر رمزا عاما للحيوية والقوة الجسمانية، الطبيعة، والكائنات الخارقة أو القوة المرتبطة شديدا بالطبيعة. هناك أمثلة كثيرة لهذا الارتباط في أماكن بعيدة، من أبرزها، أن بطل الثقافة الأسطوري المدعو: (دريبيدو) (Dribidu) والذي ينتمي لقبيلة اللوقبارا (Lugabara) والتي تسكن في أوغندة وجمهورية الكونغو الديمقراطية، وهو توأم من نسل إله السماء و(Meme) وتعني "التي كانت وحيدة". وهو والد كل مؤسسي عشائر وبطون القبيلة. وكان مع أخيه (Jaki) يؤديان العديد من الممارسات السحرية وفوق الطبيعية. وكلمة (Dribidu) تعني المشعر، ولـ "بطل الثقافة" هذا شعر طويل في كل جسمه تقريبا. كما كان يعرف أيضا بالـ (Banyule) أو آكل الرجال، لأنه يأكل أطفاله ويتمتع بالأكباد، وحين اكتُشف تم طرده من موطنه على شرق النيل (wikipedia .en org/wiki/Lugbara_mythology).

اشتهرت قبيلة (كوكو كوكو) (Kuku –kuku) في بابوا (Papua–Guinea) بميله للعنف، وحتى اسمها في اللغات المحلية من معانيه: (المتوحش) و(المتعطش للدماء) و(غير المستأنس). وعرفوا بمعتقدات في (Papua–Guinea) أسرار الشّعر. ففي أسطورة تقول بأنه كان للرجال في السابق، شعور طويلة في كل الجسم، ويجهلون النار ويطبخون طعامهم على أعضاء نسائهم التناسلية. وعندما علموا كيف يشعلون النار ويطبخون عليها طعامهم بالطريقة العادية، تساقط الشعر الطويل من على أجسامهم وصاروا أناسا عاديين.

وهناك الكثير من الحالات لارتباط الشعر الغزير بقوى فوق طبيعية، وبأنصاف البشر مثل الجنيات (fairies) والأقزام، والعمالقة، والأرواح المائية والغابية (الغابات) أو حوريات البحر (mermaids)، والشياطين. وفي (الأوديسة) يربط (أوليس) إلى صاري سفينته لكي يستطيع التخلص من حوريات البحر ومن الوحش خاريبدوس، ومن فكَّي التنين سكولا المسلحين بثلاثة فصول من الأسنان الحادة. وضمن الشخصيات الأخرى المثيرة للقلق والخوف الساحرة (كيركي) التي تمثل نقطة وسطى بين حوريات البحر

والفاتنة (نوزيكا)، وتوصف (كيركي) بأنها: "ذات الشعر الجميل، سيدة الغناء والذئاب والأسود، وهي التي تدخل (أوليس) إلى الجحيم وتسمح له برؤية أمه الميتة انتيكلي". (دوران، 79 :1991).

يضفي بعض دارسي الأساطير، وظيفة رمزية للشّعر، فهو "أنموذج الربط والتقييد، لأنه صورة مصغرة للموجة، ومن الناحية التقنية الخيط الطبيعي الذي يُستخدم لضفر أولى أدوات الربط". (المصدر السابق، ص80). وفي الاعتقاد الشعبي يربط العامة بين الربط والسحر، خاصة في مسائل الجنس. فكثيرا ما نسمع بأن فلانا مربوط؛ خاصة حين يعجز عن ممارسة الجنس في الليلة الأولى. ويفسر العجز الجنسي عموما بالربط، ولابد من فك هذا الربط عند فكي أو فقيه له إلمام بشؤون السحر "ليفك هذا العمل". فقد استخلص (إلياد) اشتقاقات لغوية تشير إلى صلة بين الفعل "ربط" و"سحر". ففي التركيب التركي- التتريل bag,baj. boj وهي تعني على التوالي: الرابط، الخيط والسحر. ونجد نفس الاشتقاق في الإغريقية: الربط بشدة، يقيد بالسحر وأيضا تستخدم كلمة واحدة للحبل ويسحر. وفي اللاتينية، تعني fascinum السحر ورُقية مهلكة. وهي ذات صلة بـfascia التي تعني رابطة أو عصبة. وفي السنسكريتية نجد أن كلمة (Yukti) تعني الربط أو شد السرج على الدابة، وفي نفس الوقت لها معنى "وسائل سحرية". كما جاءت منها كلمة اليوقا التي تفهم بأنها السحر من خلال الربط. (114 :1991) .

يورد (جيمس فريزر) في كتابه "الغصن الذهبي"، العديد من الأمثلة الشاملة للعديد من أساطير الثقافات في العالم المعاصر والتاريخ عن علاقة الشّعر بالسحر. وهو يقول بأنه في الملايو عندما يريد المرء أن يسحر شخصا آخر، فهو يأخذ قشورا، أو أجزاءً من الأظافر أو الشعر، أو الحواجب، أو لعاب الشخص المقصود. فهي كافية لكي تمثل كل أجزاء جسمه أو الجسم كله. وتضاف هذه الأجزاء إلى شبيه من الشمع من قرص نحل مهجور. ثم يسخن الشكل تدريجيا أمام لمبة كل ليلة لسبع ليال ويردد:

ليس الشمع هو الذي أصليه، هو الكبد، القلب، والمصران لفلان الفلاني هو الذي أصليه.

وبعد المرة السابعة لإحراق الشكل، تموت الضحية. وهذا السحر يجمع بين مبدأي العدوى والتشابه (Contagious & homoeopathic) أي إعطاء جرعة صغيرة من

المرض نفسه كتطعيم. لأن الصورة المشابهة للعدو أو الخصم تحمل أشياء كانت على صلة به أساسًا مثل الشعر والأظافر واللعاب. (ص17).

وفي الإسلام نجد في سورة (الفلق) تفسيرًا للعلاقة بين السحر والشّعر، تقول الآية: ﴿قل أعوذُ بربِّ الفلق* من شر ما خلق* ومن شر غاسق إذا وقب* ومن شر النفاثات في العُقد* ومن شر حاسد إذا حسد﴾. وقد جاء في الأثر: "كان غلامٌ من اليهود يخدم رسول الله (ص) فدبت إليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي (ص) وعدة من أسنان مشطه فأعطاها اليهود فسحروه فيها وكان الذي تولى ذلك رجل منهم يقال له لبيد بن الأعصم ثم دسها في بئر لبني زريق يقال له ذروان فمرض رسول الله (ص) وانتثر شعر رأسه ولبث ستة أشهر يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن فجعل يذوب ولا يدري ما عراه. فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: ما بال الرجل؟ قال طب". وتُقص عليه قصة سحره وينتبه، وقال: ياعائشة أما شعرتِ أن الله اخبرني بدائي؟ ثم بعث بعض أصحابه فجاؤوا إلى البئر وأخرجوا الجف فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه وإذا فيه وتر فيه اثنتا عشرة عقدة مغروزة بالإبرة، فأنزل الله السورتين (الثانية الناس) فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد رسول الله (ص) خفة حين انحلت العقدة الأخيرة، فقام كأنه نشط من عقال. (تفسير ابن كثير، القاهرة 1988، الجزء الرابع 574).

تؤمن شعوب كثيرة، بقدسية في الرأس بشكل خاص. فهناك عقيدة بأنه يحتوي على روح حساسة للجرح أو عدم الاحترام. إذ يعتقد اليوربا (نيجيريا) في وجود ثلاث شريكات متضمنة. تُسمَّى الأولى (أولوري)، وهي تسكن في الرأس وتحمي الشخص (حامية وحارسة ومرشدة الشخص). وتقدم القرابين لهذه الروح، وهي أساسا من الدواجن وبعض دم مخلوط بزيت النخيل تمسح به الجبهة. ويفترض الكارنيون (Karens) أن كائنا يسمَّى التسو (tso) يوجد في الجزء الأعلى من الرأس، وعندما يحافظ على مقعده هناك، لا ينزل أي ضرر على المرء من مجهودات الكلها (Kelahs) السبعة أو العواطف المشخصة. ولكن لو أصبح التسو مهملا أو ضعيفا سيقع شر ما على الأشخاص كنتيجة. لذلك يتم الاهتمام بالرأس، وتتحمل الآلام الممكنة، الملابس أو كسوة والتي تستخدم لإرضاء التسو. ويعتقد السياميون أن روحا تسمَّى (خوان أو خوون khuan أوkwun) تسكن في الرأس

البشري، ومنها الروح الحارسة ويجب أن تحمي الروح من أي حجر من أي نوع، لذلك يصاحب فعل الحلاقة أو قطع الشعر بطقوس كثيرة. إن (خوان kwun) شديد الحساسية في مسائل الشرف، وسيشعر بإهانة بليغة، لو لمس الرأس الذي يسكنه بيد شخص غريب. ويعتبر الكمبوديون لمس رأس الشخص إساءة بالغة. (303) وبعضهم لا يدخل المنزل إذا كانت هناك أي أشياء معلقة على (فوق) رؤوسهم عند الدخول. ولا يسكنون في بيت فوقه دور آخر، والمنازل دور واحد. والحكومة تحترم هذه العادة، فلا تضع المساجين في أقبية رغم أن السقف قد يكون عاليا. وسكان الملايو لديهم نفس العقيدة، وكتب الرحالة في الماضي، أن أهل جاوا لا يلبسون شيئا على رؤوسهم. ولو وضع شخص يده على رؤوسهم يقتلونه فورا. ولا يبنون المنازل ذات الأدوار لكي لا يمشوا فوق رؤوس بعضهم البعض. وهناك عقائد مشابهة لدى البولونيزيين، من أمثال الماركيزيين. فالرئيس الماركيزي Gattanewa لو لمست رأسه، أو لمس أي شيء كان على رأسه، فيعتبر ذلك انتهاك حرمة أو تدنيسا. شوهد ابن كاهن ماركيزي كبير يتمرغ على الأرض في حالة غضب هستيرية، يطلب الموت، لأن شخصا دنس شعره وحرمه من قداسته برش قطرات ماء قليلة على رأسه. ولا يقتصر تقديس الرأس على الرؤساء الماركيزيين وحدهم، ولكن رأس كل فرد يمثل تابو (محرما) ولا يلمس، ولا يمشي فوقه أو قربه. وحتى الأب لا يمشي فوق رأس طفله النائم. ولا يسمح للنساء بحمل أو لمس أي شيء كان؛ ذي صلة أو حتى طواف فوق أو على رأس الزوج أو الأب.

ولا يسمح لأي شخص أن يكون فوق رأس ملك (التونقا) وفي تاهيتي أي شخص يقف فوق رأس الملك أو الملكة، أو يمرر يده على رأسهم، يمكن أن يعدم. يظل الطفل التاهيتي تابو (محرما) حتى تقام فوقه طقوس معينة. وكل من يلمس رأس هذا الطفل، عندما يكون في هذه الحالة، يعتبر "محرّما" ويوضع في مكان تكريس يسيج في منزل الطفل، خصيصا لهذا الغرض. لو لمس غصن شجرة رأس الطفل تقطع الشجرة، ولو جرحت شجرة واحدة أخرى أثناء سقوطها، تقطع هذه الشجرة أيضا باعتبارها غير طاهرة وغير صالحة للاستعمال. وبعد إجراء هذه الطقوس، يتوقف التحريم الخاص. ولكن يظل رأس التاهيتي باستمرار مقدسا، لا يُحمل عليه شيء، ويعتبر لمسه إساءة. والأكثر قداسة هو رأس قائد أو حاكم الماوري (Maori) في نيوزيلندا، لو لمس رأسه بأصابعه يفرض عليه أن

يدخلهما في أنفه، ويعطس القداسة التي اكتسبوها باللمس، وبالتالي إرجاعها للجزء الذي أخذت منه. ولا يسمح لرئيس الماوري أن ينفخ النار، لأن النار التي ينفخها تأخذ من نفسه المقدس بعض قدسيته. فقد يأخذ أحد العبيد أو شخص من قبيلة أخرى شعلة من هذه النار أو قد تستخدم في أغراض أخرى مثل الطهي، وهذا قد يسبب موته (ص333).

يعتبر السيخ أنهم مأمورون من قبل القورو (Guru) أو المعلم (قوبند سنغ) في عام1699، بإطلاق شعور طويلة غير مقصوصة سميت (كيسا) (Kesh)، وهي إحدى متطلبات العقيدة الخمس التي تسمَّى جمعيا (Karkars) أو الكافات الخمس؛ والتي تشكل المظهر الخارجي لهوية السيخ، وتوضح إخلاصه والتزامه بالنظام (حكم Hukum) وأن يكون عضوا في الخالسا (Khalsa)، والمقصود بها الكيان الذي يضم الجنود القديسين لقورو قوبند سنغ. ويمثل الكش أو الشعر الطويل غير المقصوص جزءا لا ينفصل من الجسم البشري الذي خلقه (Vaheguru). والشعر الطويل من رموز التدشين وطقوس العقيدة الهامة للدخول في الجماعة. وهو شرط للعقيدة وقسَم لا يحنث، يصطلح عليه بـ (Kesadhari) والذي يعرّف السيخي بأنه الشخص الذي يحمل على رأسه كل شعره الذي لم يتعرض أبدا لحلاقة أو قص مهما كانت الظروف والملابسات. وبسبب ارتباط الشّعر بقوى فوق طبيعية، ترك رهبان القرن الرابع في مصر وسوريا، والهندوس السامنياسيون (samnyasin)، الحياة العادية، عاشوا في وحدة وعزلة، مشعثين، شبه عراة تغطي أجسامهم شعورُهم الطويلة فقط.

في حوالي القرن السابع عشر، أجبرت عشيرة (المانشو) كل الرجال الصينين على تبني شكل للشعر سُمِّي الكيو (Queue)؛ وهي أساسا ضفيرة طويلة تنزل على الكتفين بينما يحلق جزء من مقدمة الرأس. واستمرت العادة حتى القرن التاسع عشر، وعندما هاجروا إلى أمريكا غيروا عادتهم. ومع الثورة الثقافية عام 1964 وقفوا ضد القديم: الذهب والشعر الطويل كرموز للبورجوازية وتجسيد الثروة. موقف سياسي ضد الغرب. وانتشرت في جنوب شرق آسيا وإندونيسيا عادة الشعر الطويل حتى القرن السابع عشر. ولكنها تغيرت حين بدأت المنطقة في استقبال التأثيرات الإسلامية والمسيحية.

***

هناك جوانب أخرى مختلفة تستحق التوقف، كما أسلفنا، فالشّعر يمثل تعبيرا عن الحياة، القوة والقدرة السحرية والدينية أو مرتبط بالحيوانية أو حالة خروج عن المجتمع. كان لابد أن يقابل هذا ممارسات وقائية أو معاكسة أو تحصينية، لذا كان قص الشعر وسيلة للضبط الاجتماعي، والانضباط، أو الانتقال من مكانة اجتماعية إلى أخرى. وبالتالي يصبح قص الشّعر مثل طهي الطعام، كناية (metaphor)، أو رمزا لفرض الضبط الاجتماعي على الطبيعة، وأيضًا طقسًا، للعبور. وفي الطقوس المقدسة، تخلق عملية نذر الشّعر رباطا بين الشخص وإلهه، وهو عقد يفترض فيه أن يتسم بالدوام. ولكنه يجدد في فترات معينة يحس فيها الشخص بأن اهتمام الإله به قد بدأ يضعف. وهنا يكرر تقدمة الشعر، أو ينذر أنه سيقوم بذلك. ويكتب بعض الباحثين: "... فقد جرت العادة عند أهل الطائف بالجزيرة العربية، أن يحلقوا رؤوسهم بقدس إله البلدة كلما عادوا من رحلة. والفكرة وراء ذلك أن الغياب عن الموضع المقدس قد يرخي الرباط الديني، فيلزم توثيقه من جديد". (سميث 358).

هناك طقوس ملازمة لقص الشّعر تهدف إلى تقليل المخاطر الممكنة. ففي (فيجي) يجب على رئيس قبيلة الـ (Namosi) أن يأكل دائما شخصا على سبيل الاحتياط عندما يستوجب عليه قص شعره. ويفرض على عشيرة بعينها تقديم تلك الضحية. فهي تعقد مجلسا رصينا ليتم من بين الحضور اختيار الضحية. وتقام وليمة للتضحية لإبعاد الشر عن رئيسهم. أمّا بين الماوريين (Maoris)، فهناك تعاويذ كثيرة تطلق أثناء عملية الحلاقة. إحداها تتلى على السكين بقصد تكريسها وتطهيرها، وتعويذة أخرى تذكر لإبعاد الرعد والصواعق التي يفترض أن قص الشعر يتسبب فيها. والشخص الذي عليه أن يحلق شعره سيكون تحت رعاية الروح (Atua)، أو الإله في بولينيزيا، ويُبعد عن الاتصال والاجتماع بأسرته وقبيلته. ولا يستطيع أن يلمس طعامه بنفسه، ويوضع الطعام في فمه بواسطة إنسان آخر، ولا يستطيع ممارسة حياته العادية ولا يختلط بأقرانه. ويعتبر من يقص شعره محرّما (tabooed)، فأيديهم كانت على اتصال برأس مقدس، ولا يستطيع أن يلمس الطعام بهما أو يفعل أي عمل آخر، ويُطعم بواسطة شخص آخر طعاما طهي على نار مقدسة. ولا يخرج من المكان المحرم إلا بعد اليوم التالي، بعد أن يمسح يديه بالبطاطس أو دهن السرخس المطبوخ على نار مقدسة، وهذا الطعام يؤخذ إلى كبيرة

العائلة في خط نسائي وتأكله، حتى تحرر يده من المحرم. وفي بعض أنحاء نيوزيلنده، يعتبر أكثر الأيام قداسة هو ذلك اليوم المحدد لقص الشعر، حيث يتجمع الناس في أعداد كبيرة من كل الجيرة.

وهناك اعتقاد بأن الشّعر المقصوص أو الساقط من المشط يضر بالجو، وقد تُحدث الصواعق والرعود. وفي (التيرول) يفترض أن السحرة يستخدمون الشّعر المقصوص أو الساقط من المشط في صناعة العواصف الرعدية أو عواصف البرد. ويرجع الهنود (Thilinkeet) الجو العاصف إلى أن فتاة طائشة سرحت شعرها خارج البيت. وللرومانيين اعتقاد مماثل، فمن الممنوع أن يقوم شخص على متن باخرة بقص شعره أو أظافره إلا خلال العاصفة، على أساس أن السوء حدث. وفي مرتفعات اسكتلنده تمنع الأخت من تسريح شعرها ليلا لو كان لديها أخ في البحر. وفي غرب إفريقيا عندما يموت ساحر (Mani) من عشيرة (Chitombe أوJumba) يسارع الأهالي إلى جثمانه لينزعوا شعره وأظافره ويحتفظوا بها كرقي للمطر؛ مؤمنين بأنه من دون ذلك فلن تنزل المطر. (309) ويتسول (ماكوكو) (Makoko ملك من Anzikos) أن يعطوهم نصف ذقونهم كرقى للمطر!

تظل صلة الاستجلاب؛ أي علاقة الجزء بالكل في عملية قص الشعر وتقليم الأظافر؛ قائمة مع الشخص الذي أُخذت منه. ومن الواضح أنها تستخدم وسيلة رهن لضمان حسن سلوكه بواسطة أي شخص يصادف أنه يحتفظ بها. وحسب مبادئ سحر المماثلة (contagious)؛ يمكنه حينها أن يسبب لهذه الأجزاء- الشعر أو الأظافر- ضررا، لكي يؤذي صاحبها في نفس الوقت. وعندما يؤخذ (النانادي) سجينا يحلقون شعره ويحتفظون بالشعر كضمان أنه لن يحاول الهرب، ولكن حين تفتدى الرهينة، يُرجعون شعره المقصوص لقبيلته، ويحتفظ بالشعر في أماكن آمنة ومضمونة، لكي لا يستعمل في إحداث الضرر. وفي (نيوزيلنده) تجمع خصلات رئيس (الماوري) وتوضع قرب المدفن. ويدفن التاهيتيون شعورهم في المعابد. ولكن ليس بالضرورة أن يُخبأ، أو تدفن بقايا الشعر أو الأظافر في أماكن مقدسة كما أسلفنا. ففي (Swabia) (المنطقة التاريخية الألمانية)، كان يُنصح الشخص أن يضع بقاياه في مكان لا تشع فيه الشمس ولا القمر، لذلك يدفن في الأرض أو تحت حجر. وفي(Danzig) (في بولنده) كان الشعر يُدفن في

حقيبة عند عتبة المنزل. وفي(Ugi) بجزر سليمان؛ يدفن الرجال شعورهم لمنع السحر. ونلاحظ نفس هذا الخوف لدى الملانيزيين، وقد أدى إلى ممارسة منتظمة لدفن الشعر والأظافر. وتنتشر الممارسة في جنوب إفريقيا لكي لا يجد السحرة خصلة الشعر، فينفثوا فيها السحر. ولا يقف (Caffres) الـ(Sofola) في شرق إفريقيا عند حد إخفاء البقايا في محل سري، ولكن عندما ينظف رأس آخر، ويجد هوامَّ يحتفظ بها بعناية ويعطيها لصاحبها. فهي تحمل أيضا القوة من خلال دم ذلك الشخص، ولو قتلها شخص آخر فإن دم جاره أو صاحبه يكون في ملكيته، وبالتالي يحصل على قوة تأثير فوق– بشرية.

وتمارس كثير من الشعوب عادة دفن الشّعر. وعندما تجز القصة العليا لشعر طفل سيامي بطقوس كبيرة، يوضع الشعر الصغير الذي قد يتساقط، في طبق صغير يصنع من ورق الأشجار ويوضع جانبا قرب نهر أو قناة، طافيا. وعندما يبحرون فكلُّ ما هو مضر أو خاطئ من بقايا الطفل سوف يسافر معهم. أما الخصلة الكبيرة المقصوصة فيحتفظ بها إلى أن يقوم الطفل برحلة الحج إلى أثر قدم (بوذا) في المرتفع المقدس في (Prabat) وتقدم إلى الكهنة الذين يصنعون بها مكنسات ينظفون بها مكان الأثر، وفي الحقيقة يقدم شعرًا كثيرا، وبالتالي يحرقه الكهنة فور مغادرة أصحابه. أما شعر (Flamen Dialis) الديانة الرومانية القديمة: جوبيتر، فهو يدفن تحت الشجرة السعيدة. أما ضفائر كاهنات فيستا (Vestal Virgins) فتعلق على شجرة اللوتس العتيقة.

في الثقافات السامية، يُعتبر الشّعر والدم (الختان مثلا) من أهم طقوس التدشين والانتقال إلى مرحلة جديدة في العمر أو في العبادة. فقد عرف الساميون قربان الشّعر (مثل الختان) في عملية دمج الفرد في الجماعة، وقد أخذ ذلك أشكالا عدة. ومن أبرزها أن العرب قبل الإسلام، كانت تقوم بذبح شاة عند مولد الطفل، ثم حلق رأس المولود ودهن فروة رأسه بدم الذبيحة. وتسمَّى: العقيقة أو حلق الشّعر، (استمرت التسمية والممارسة في الإسلام) والقصد منها حماية الطفل من الشرور. ويطلق العرب لفظ: عقيقة، على شعر البطن، أي الشعر الذي يولد به الطفل، وعلى الطقس الديني الخاص بجزه وفي نفس الوقت، هي نذر يتم به إدخال الطفل في حماية إله الجماعة. ولكن هناك من يرى أن العقيقة عند العرب، في الأصل، كانت احتفالا خاصا بإعلان بلوغ طور الرجولة، وأن تحويل الاحتفال إلى الطفولة كان بدعة حدثت لاحقا. (شميث، ص: 356).

انشغل المسلمون كثيرًا بموضوع كيفية التعامل مع بقايا الشّعر، وقد حملت المجتمعات الإسلامية كثيرا من عادات ثقافتها التقليدية ما قبل إسلامية ثم دمجتها وتمثلتها بعد أن اعتنقت الإسلام وصارت تعتبرها جزءا من الإسلام، ومن مكوناته العقدية. ويقول الفقهاء إن جسد الإنسان في الأصل محترم، ومن السنة أن يدفن المسلم ما قصّ من شعره وأظافره، وما سقط من جسده أو سال من دمه، لأن ذلك هو مآل جسمه كله. ويستشهدون في ذلك بالآية الكريمة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾. (طه: 55). وكذلك: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءًوَأَمْوَاتًا﴾ (المرسلات: 25-26). بالإضافة لحديث رواه الطبراني في الكبير، أن النبي (ص) أمر بدفن الشعر والأظفار. ولذلك لا ينبغي للمسلم أن يترك مخلفات جسده مهملة أو يرمي بها في القمامة. وتهتم البرامج الدينية كثيرا بهذا الموضوع. فمن المعتاد ورود أسئلة تبحث عن فتوى دينية عن كيفية التعامل مع بقايا الشعر. وعلى سبيل المثال فقط لا الحصر، نجد هذا السؤال: "أنا أعمل حلّاقا فماذا أعمل بالشعر فهل يجوز حرقه أم أقوم بدفنة مع العلم أن عملية الدفن ستكون شاقة لأن كمية الشعر تكون كبيرة في كل أسبوع؟". وكانت الإجابة كما وردت في كتاب: "مجموع الفتاوى" للشيخ (ابن باز) كما يلي: "... فلا شك أن دفن الشعر أولى من حرقه؛ كما بينا ذلك في الفتوى رقم: 54190، والفتوى رقم: 38921. لكن دفن الشعر ليس واجبًا يأثم تاركه، بل هو مستحب، فإذا كان في دفنه مشقة أو كلفة فلا حرج في رميه في القمامة أو حرقه، ولم نقف على نهي يمنع من رمي الشعر أو حرقه، والأولى في مثل هذه الحال حرقه حتى لا يقع الشعر في أيدي السحرة أو غيرهم ممن قد يستعمله في إيذاء الآخرين".

تهتم المجتمعات الإسلامية التقليدية بشعر الطفل منذ ولادته، لاعتقادها بأن لذلك صلة صلة بالمصائر والمستقبل بقصد تحقيق النجاح والسعادة وتجنب الشقاء والفشل. وقد وجدت في (المغرب) المعروف بسحره وغموضه وثرائه الفولكوري؛ نموذجا ممثلا جيدا وكافيا لمضمون هذا المعتقد الخاص بطقوس وشعائر تدشين الطفل ودمجه مبكرا في حياة مجتمعه. ففي العادة لا تحتسب الأربعون يوما الأولى من حياة الإنسان، والتي تسمى بـ: "فترة تسبيق". وفي اليوم الاربعين من حياة الرضيع، تأخذه أمه إلى ضريح الولي محملة بالشموع وبكيسين صغيرين من التمر ملفوفين في ثوب أخضر. وقبل أن تجري عملية

حلق رأس المولود، يدهن شعره بواسطة الحليب المستخرج من ثدي أمه بدل الماء، يتناول الحلاق قطعة من القصب ويشرحها إلى نصفين، ويضع بينهما شفرة حلاقة ثم يربطهما بخيط، ليحلق بهذه الآلة شبه البدائية شعر قفا الرضيع. وعادة ما يقوم ذلك الشخص المكلف بهذه المهمة بحلق الشعر من الأطراف من حوالي أذنيه بطريقة دائرية مع ترك "القنة" (قنة الرأس)، كما هي قبل أن يعمد إلى دهن المناطق التي مرر فيها موس الحلاقة بالحناء. كما توضع في مقدمة رأس الوليد تميمة غالبا ما تكون عبارة عن "خميسة" من ذهب أو فضة لطرد الأرواح الشريرة وحمايته من العين. بعد ذلك، تقوم النسوة بأخذ شيء من شعر المولود وخلطه ببعض البخور وجمعه في قطعة من القماش، تكون بيضاء اللون، يجري ربطها إلى عنقه، لتظل ملازمة له لمدة قد تطول أو تقصر، باعتبارها تمنع عنه أذى الإنس والجن. وفي حالات أخرى، تُعنى الأم بجمع كل ما استعمل في حلاقة رأس صغيرها (قصب، شفرة، شعر) وتلفه في ثوب أبيض لتدفنه في مكان لا يقربه أحد، يكون غالبا ركنا من أركان المقبرة المجاورة للضريح. أمّا الحلّاق فيحتفظ بالثوب الأخضر ويكبس التمر لنفسه. بينما ينفث بُصاق "بركته" على الكيس الآخر لتعود به الأم إلى بيتها، تفاديا لاستعمال شعر الرضيع في عمل سحري محتمل. ولا ينبغي تجاوز موعد الأربعين يوما، لأن ذلك يجعل الحماية غير مضمونة، كما لا يجب استعمال آلات الحلاقة العصرية التي يبطل استعمالها المفعول الوقائي للعملية. وهذا ما يعرف بـ"الحسانة" عند هذه الجماعات. (edracat. com/new & bayanealyaoume. press).

وباعتبار الدين هو الحاكم المطلق لسلوك المسلمين، كان لابد من التساؤل عن موقف الإسلام من قص شعر المولودة- الأنثى. ويرد (ابن باز) في "مجموع الفتاوى" (48/10) على سؤال برقم 4312 وتاريخ 1407/11/23هـ عن حكم حلق شعر البنت بعد ولادتها؟ فيقول: "وأفيدك: أن السنة حلق رأس الطفل الذكر عند تسميته في اليوم السابع فقط، أما الأنثى فلا يحلق رأسها؛ لقوله- صلى الله عليه وسلم-: "كل غلام مرتهن بعقيقته تذبح عند يوم سابعه، ويحلق، ويسمَّى" أخرجه الإمام أحمد، وأصحاب السنن الأربع بإسناد حسن.

***

وفي سياقات ثقافية أخرى، كان شعر الأولاد والبنات من السريان يترك للنمو دون جزه من المولد وحتى البلوغ، ثم يتم جزه وإهداؤه في قدس الإله كخطوة تمهيدية للزواج. وهذا يعني أن تقدمة الشعر بالنسبة للفتيان والفتيات على السواء، كانت احتفالا بالدمج الديني لابد من إقامته لهم لإعلان بلوغهم النضج الاجتماعي. ويبدو أن نفس الشيء كان يحدث في أقداس الفينيقيين، ولو للفتيات على الأقل، إذ كان على التابعات من الإناث في عيد أدونيس في بيبلوس أن يتقربن إما بشعرهن أو بعفافهن تمهيدا لزواجهن. وفي السودان، يقص الشّعر الأول للطفل والذي يسمَّى (شعر البطن). وبالنسبة للولد، يفضل أن يقوم بهذه المهمة رجل ذو أخلاق وخصال مرغوبة بأمل أن تنتقل الخصال بهذه الطريقة للمولود الجديد. وقد كانت هذه العادة منتشرة بين الساميين في الجزيرة العربية والشام. فقد كان الفتيان يطلقون شعورهم بلا قص. وكانت علامة النضج هي الاحتفاظ بخصلتيْ العارضين التي كان المحاربون البالغون يجزونها، وكانت هذه إشارة رسمية على دخول مرحلة الرجولة دينيا واجتماعيا.

في بعض الثقافات، يحتفظ ببقايا الشعر والأظافر في بعض الأحيان ليس بغرض ضمان عدم وقوعها في يد شخص يعمل بها ضررا، ولكن بقصد أن يجدها صاحبها في حالة بعث جسده، والذي تتوقعه بعض الجماعات. لذلك يهتم (الإنكا) في (البيرو) بشدة، بالاحتفاظ ببقايا الشعر والأظافر التي تُقص أو تسقط من المشط، ويضعونها في جحور أو فتحات في الحيطان. وقد سألت بعض الهنود في مناسبات مختلفة عن السبب في ذلك. فكان رَدُّهُمْ جميعا بنفس الكلمات: "إنك تعلم أن الناس المولودين يعودون مرة أخرى للحياة (ليس لديهم كلمة تعبر عن البعث أو النشور) ويجب أن تقوم الأرواح من مقابرها بكل ما يمتلكه الجسد. لذلك، لكي لا نقوم بالبحث عن البقايا، نضعها في مكان واحد، خاصة أن الوقت سيكون مزعجا والناس في عجلة وربكة لكي نحضرها سريعا وبلا تعب". ولا يرمي (الأرمن) شعورهم وأظافرهم وأسنانهم، ويخبئونها في أماكن مقدسة؛ مثل فتحة في جدار الكنيسة، أو عمود في المنزل، أو شجرة مجوفة. وعليهم إحضارها يوم البعث ومن لا يضعها في محل آمن ومعروف يتعب كثيرا آنذاك في العثور عليها.

وفي قرية (Drumconrath) بأيرلندا، يوجد بعض النساء العجائز يعتقدن- حسب تفسيرهن من الكتاب المقدس- أن شعور رؤوسهن قد حسبها الله كلها، ويتوقعن أن

تُحسب في يوم القيامة. ولتجنب ذلك يخشين من الشعور المتساقطة في ثنايا القطاطي أو الأكواخ التي يسكُنَّها. وتحرق النساءُ؛ في منطقة (Patagonians) في الطرف الجنوبي من أمريكا الجنوبية؛ وهي مقسمة بين شيلي والأرجنتين على جبال الإنديز، وبعض القبائل الفكتورية؛ شُعورَهُنَّ، خشية وقوعها في يد السحرة، أو يُخفونها في مكان لا يمكن أن ينظر إليه أحد. وفي (Vosges) العليا (اللورين)؛ على المرء ألا يترك هذه البقايا أبدا، بل تحرق لكي لا تقع في يد السحرة لمنعهم من إساءة استخدامها. كما تحرق النساء الإيطاليات بقايا شعورهن، أو تخفينها في مكان لا يمكن الوصول إليه. ونفس الخوف المنتشر من السحر، يجعل زنوج جنوب إفريقيا (Makololo) ، والتاهيين يحرقون أو يدفنون شعرهم المقصوص. وفي التيرول يحرق الكثيرون منهم شعورهم خشية الاستخدام في السحر من أجل تحريك العواصف الرعدية. وآخرون يحرقون أو يدفنون الشعر لكي لا تجده الطيور وتبني منه أعشاشها مما يسبب الصداع. (ص312).

ويتبين مما تقدم؛ وجود خلل منطقي في التفكير وعدم اتساقه، فيما يخص تحطيم الشعور والأظافر لمنع استخدام هذه الأجزاء في إحداث الضرر. واحتمال حدوث ذلك يعتمد على التشابه في العداوة المفترضة بينهم وبين الشخص. ولكن لو كانت هذه العلاقة موجودة، لا يمكن تخريب الجزء دون إحداث ضرر على الكل (الشخص المعني).

وبعد أن تتم عملية قطع الشّعر والأظافر بسلام، تبقى بعد ذلك مسألة التخلص من هذه البقايا خشية سوء استخدامها في عمل السحر. ففي عقيدة (الماركيزيين)، يحتل الإيمان بالسحر والشعوذة موقعا أساسيا. ولذلك للسحرة دور كبير في حياتهم. فالساحر يمكن أن يأخذ بعض الشعر أو زوائد الشخص الذي يريد إيذاءه، ويربطها في ورقة شجر، ويضع الصرّة في كيس منسوج من خيوط أو ألياف، وتعقد بطريقة يصعب حلها. ويدفن كل هذا مع تلاوة بعض الشعائر، وحينئذٍ تعاني الضحية من صعوبة تستمر عشرين يوما. وقد تنقذ حياته في حالة الكشف والحفر عن الجزء الذي دفن. والساحر في الماوري يمارس سحره على الشخص من خلال الشعر أو الأظافر أو اللعاب أو جزء من ملابسه، بعد الحصول عليه ينشد تعاويذ أو لعناتٍ معينة عليه، في صوت عالي الطبقة، ثم يدفن الجزء في الأرض. وعندما يتآكل في الأرض، يفترض أن صاحبه يفنى أو يتبدد. وبين بعض الأستراليين، عندما يريد الفرد من السكان الأصليين، أن يتخلص من زوجته، فهو

يقص خصلة من شعرها أثناء نومها، ويربطها على رأس حربة قتاله، ويذهب بها إلى قبيلة مجاورة لصديق له، والذي يقوم بدفن الحربة كل مساء أمام مكان نار الخيمة، وعندما تقع الحربة، فهذه علامة بموت الزوجة. وشرح أحد رجال الـ(Wirajuri) في أستراليا، للدكتور هويت (Howitt) طريقة سريان السحر: "عندما يمسك الساحر بشيء يخص شخصًا ما ويحرقه مع أشياء أخرى ويغني عليها، هنا تمسك النار برائحة الشخص وهذا يقضي على المسكين!".

يتصور سكان الـ(Huzuls) في (Carpathians) في شمال شرق أوربا، أن الفئران لو أخذت شعرا مقصوصا لشخص ما ونسجت منه جحرا فسوف يعاني ذلك الشخص من الصداع أو حتى قد يصاب بالبله. ونفس المعتقد كان في ألمانيا، لو وجدت طيورٌ شعرَ شخصٍ وبَنَتْ منه عُشًّا، فسيصاب بالصداع، وفي بعض الأحيان قد يصاب بشق في رأسه. ونفس الخرافة منتشرة في سسكس (Sussex) ومن العادات المماثلة، في وسط البرازيل تترك المرأة لدى قبائل (Chickeri) في وسط البرازيل، شعرها طويلا بعد طفلها الأول فقط، وبعد ذلك يمكن أن تقصه. وفي مجتمع (Dobuan) في غرب الباسفيك، يقوم الزاني، بقص شعر المرأة التي أغواها، أمام الناس، إذا أراد أن يتحدى زوجها. وفي هذا المجتمع، العناية بالشعر ذات خدمة متبادلة بين الأزواج ومرتبطة بالعلاقة الجنسية.

يستخدم الشّعر في حالات السحر والتضحية والحزن. وهناك أشكال أخرى للتضحية بالشّعر، إذ وجدت عادة عند قدماء اليونان والرومان، تتمثل في وضع خصل شعر للآلهة في معابدهم. مثلا عند بلوغ الرجولة، يقدم الشباب لحيتهم الأولى لأبولو، إله الخصوبة، أو يعطون شعرهم لإله النهر المحلي. أعطي نيرون شعره الأول لجوبيتير. وهذا بمثابة تدشين للدخول في مرحلة اجتماعية جديدة. وكان شعر (أخيل) قد أُهدي لسبركيوس إله النهر، الذي قص تكريما له عندما عاد سالما من طروادة. ولكنْ نظرا لعلم البطل بأنه ما كان ينبغي له أن يعود، فقد حوّل القربان إلى باتروكلوس الميت ووضع خصلة شعره الأصفر في يد الجثة. (شميث، ص: 352) ويقطع الفتيان والفتيات الريان جدائلهم ويودعونها في علب من ذهب وفضة في المعابد. وتعطي فتيات فينيقيا شعرهن (وأحيانا بكارتهن) لأدونيس في مهرجان الربيع السنوي في بيبلوس. نساء اليونان يقدمن شعورهن كمهور قبل الزواج. بينما (Hygiei) إلهة الصحة تُعطَى شعور النساء قبل أو بعد ميلاد

الطفل. وكانت نساء العرب في الماضي يضعن شعرهن على قبر الميت. والعكس عند (Iroquois) تعطي خصلة من شعر الميت إلى أقرب الأقربين. بينما (الزوني) (Zuni).

يؤمنون بأن حرق شعر صديق ميت واستنشاق دخانه يعطي صحة أحسن كقص مصالحة، شعر أو لحية القاتل تقص، كرمز أو تذكار لروح المقتول المطلوبة.

من أهم الرموز، علامة الشّعر المجزوز أو المقصوص (shorn head) بين "العبيد". فقد ارتبطت بهم بين شعوب كثيرة مثل (Ila) في زامبيا، والصومال، الصين، جبال بورما، الجرمانيين، روسيا القرن 19، الهنود في الساحل الشمالي الشرقي، وعدد من قبائل أمريكا الجنوبية، والكاريبي. وانطبق التقليد على النساء الرقيق في الشرق الأدنى القديم. وتطبقه الآن الجيوش على المجندين والعسكريين. (أورده إلياد عن باترسون، ص155).

يكتسب الرأس قدسية أو سحرية خاصة في الوجود البشري لدى كثير من الشعوب والثقافات، والتي تحرم حتى لمسه. ونلاحظ أن أغلب الشعوب تضع مسندا ما تحت رأس الميت في المدفن، فغالبا ما يعتقدون أن الروح في الرأس، فيعامل بطريقة مختلفة. لذلك، من الواضح أن عملية قص الشّعر مسألة حساسة ومعقدة، إذ تصاحبها العديد من الطقوس والشعائر، وما يتبع ذلك من صعوبات ومخاطر. ويذكر فريزر نوعين من المخاطر، الأولي: خطر ازعاج الروح الموجودة في الرأس، والتي يمكن أن تجرح خلال العملية، وسوف تنتقم لنفسها من الشخص الذي سبب لها الازعاج أو المضايقة. ثانيا: صعوبة رمي الخصل المقصوصة إذ لابد من حمايتها. ويؤمن هؤلاء بالسحر (الاستجلابي) (Sympathetic) أو عمل شيء صغير أو جزء يستجلب التأثير على الكل أو العمل الكبير. وهنا يقصد الصلة السحرية بين الإنسان وأجزاء جسمه؛ والتي تستمر في الوجود حتي بعد انقطاع الصلة الفيزيقية أو الجسمية، وبالتالي يمكن أن يعاني الشخص من أي ضرر يقع على أجزائه مثل قطع الشعر والأظافر. لذلك يهتم الشخص بهذه الأجزاء أو البقايا ولا يتركها في أماكن قد تتعرض صدفة لضرر أو قد يجدها شخص شرير قد يصنع منها عملا سحريًا لإيذائه أو قتله. والجميع عُرضة لهذه الأخطار ولكن الأشخاص المقدسين هم الأكثر عرضة للضرر، وبالتالي عليهم أخذ الحذر الشديد. وأبسط الوسائل لتجنب الخطر، ألا يقص المرء شعره مطلقا. وهذا هو التصرف أو الحيلة التي يتم تبنيها

عندما يعتبر الخطر أكبر من العادي. أما ملوك الفرنجة (Frankish) فهم أصلا محاربون، ويُحتفى بشعرهم الطويل كعلامة مميزة لوضعهم الملكي. لذلك فقد كان لا يسمح لهم بتقصير شعورهم منذ طفولتهم، فهم لا يقربونه بالقص أبدًا. ولو حدث أن قطعوا خصلاتهم الطويلة التي تنزل على أكتافهم، وجب عليهم التنازل عن حقهم في العرش. ويُحكى أنه عندما رغب الأخوان الشريران (Clotaire) و(Childebert) في مملكة أخيهم الميت (Clodomir) حاولا تملق ابنيْ أخيهم الصغيرين، وبعد ما أغراهم، أرسلا رسولا يحمل مقصا وسيفا إلى جدتهما الملكة (Clotidle). وخيَّراها بين أن يحلق شعر الصبيين ويبقيا أحياء أو يبقيا غير حليقين ويموتا. فقررت الملكة بكبرياء أن الحفيدين إذ لم يمنحا العرش، فهي تفضل أن تراهم موتى على أن يكونا حليقين، واغتالهما عمُّهما القاسي (Clotaire) وكان على ملك ونبلاء بوناب (Ponape)؛ إحدى جزر (كارولين)؛ أرخبيل يضم 930 جزيرة في المحيط الهادئ شمال خط الإستواء بين جزر (مارشال) و(الفليبين)؛ أن يتركوا شعورهم طويلة. وكهنة قبيلة الهوسا في غرب إفريقيا لا تقرب الموسى شعورهم حتي وفاتهم. والإله الموجود في الرجل يمنع قص شعره درءا لألم الموت، ولو صار الشعر طويلا جدا يطلب صاحبه من الإله أن يسمح له بقص بعض أطرافه. فالشعر يعتبر لديهم مقعد أو مسكن الإله، ولو حلق سيفقد الإله رابطته بالكاهن. ويمنع زعماء (الماوري) من قص شعورهم، كذلك كهنة عدد من المجتمعات مثل (Aztec) في وسط (المكسيك)، وعشائر من (القالا) (Borana Gala) في إثيوبيا. وهناك أعضاء عشيرة بين قبيلة الماساي (كينيا) معروفون بأنهم صناع المطر، لا ينتِفُون ذقونهم (لحاهم) لأن فقدان اللحية يعني فقدانهم لقواهم في صنع المطر.. ويراعي الرئيس والسحرة نفس القواعد لنفس الأسباب، فهم إذا نتفوا ذقونهم، فإن قواهم فوق الطبيعية سوف تغادرهم. وكانت الكائنات الإلهية تُصَوَّر بشعور طويلة. ويُشير المصريون القدماء إلى (رع) إله الشمس المعبود؛ بخصل ذهبية. ويترك الأشخاص الذين يُقسمون بأخذ الثأر، شعورهم غير حليقة حتي يوفوا بالقسم.

ويعرف عن الماركزيين (Marquesans) أنهم أحيانا يحلقون رؤوسهم تماما، عدا خصلة في أعلى الرأس تترك على حالها أو تربط بعقدة. وهذه الطريقة هي بمثابة نذر للانتقام، وعندما يتم الوفاء بالقسم تُحلق. وتمت ملاحظة عادة شبيهة بين قدامى الألمان

(Chatti) فإن المحاربين الشبان لا يحلقون شعورهم أو ذقونهم حتي يقتلوا عدوا. وبين الـ (Toradjas) في إندونيسيا، يقص شعر الطفل للتخلص من القمل والهوام، وتترك بعض خصلات في قمة الرأس كملجأ لبعض أرواح الطفل، وإلا فلن تجد الروح مكانا لتستقر، فيمرض الطفل. ويخشى الـ (Karo–Bataks) في شمال سومطرة بإندونيسيا؛ من تخويف أو إزعاج روح الطفل، لذلك عندما يحلقون شعره يتركون ربطة غير محلوقة لكي ترجع إليها الروح قبل القص. عادة تبقى هذه الربطة أو الخصلة غير محلوقة طوال حياة الطفل أو على الأقل حتى سن البلوغ. وهذه نفس فكرة "القنبور" في السودان، مع قليل من الاختلاف في العقيدة. ففي بعض قبائل شمال السودان، يكون القنبور نذرا لفكي أو رجل مقدس، وعادة ما يحلق في مكان الفكي حتى لو كان متوفيا يقص في القبة أو البيان.

في جماعة (تمنه Temne) في إفريقيا، يستغرق تنسيق موضة الشعر ساعات أو أياما. وتشكل الصفوف المتأنقة للشعر تمثلا رمزيًا لزراعة الأرض وبالتالي وجود حضارة. وتبدأ مرحلة النضج عند أولاد (البولينزيين) في الباسيفيك، بقص الشعر ليفترقوا عن النساء. وفي نفس الوقت، يعتقد أن الشعر يحتوي علي المانا (mana) أو القوة، لذلك يعتبر قصه– بلا طقوس– خطرا. وفي بعض قبائل غرب إفريقيا يُعتبر شعر المرأة الطويل علامة صحة وقوة وقابلية لخصوبة وإنجاب أكثر؛ بينما في أجزاء كثيرة من إفريقيا يفضل شعر المرأة قصيرا. ومن عادات الموريتانيين في رمضان، حلق شعر الرأس أو يخففونه في الأسبوع الأول من رمضان، تبركا بهذا الشهر الفضيل. وهو تقليد أصيل هدفه التبرك بالشعر الذي ينبت على رؤوسهم في شهر رمضان المعظم. (سكينة اصنيب، جريدة إيلاف 18/10/2005).

وتنظر أيضا بعض شعوب شرق آسيا للشعر الطويل كعلامة شباب وجمال، كما ربط بالخصوصية والجنس. لذلك، ترى في شعر المرأة الأشعث أو المنفوش، إشارة لرغبة في الجنس أو أثر لممارسة جنسية حديثة لأن الشّعر يفترض أن يكون ملموما أو مربوطا. وهناك اعتقاد بين الكثيرين بأن الشعر إذا كان أسود كان جمال الآدمي، فإن ابْيَضَّ زال جماله.

يُدرِجُ البعضُ الشّعر ضمن قياس الفراسة، فالشّعر اللين يدل على الحُمق والخشن يدل على الشجاعة. ونقرأ من كتاب العهود: "يا إسكندر أنا أثبت لك من علم الفراسة رسوما مختصرا وعقدا كافية تغنيك- بحسن طبعك وكرم جوهرك عن كثير من علم الفراسة إن شاء الله (....) فالشعر اللين دليل على الجبن وبرد الدماغ وقلة الفطنة. والشعر الخشن دليل الشجاعة وصحة الدماغ. وكثرة الشعر على الصدر والبطن يدل على الوحشة في الطبع وقلة الفهم وحب الجور والشقرة دليل الحمق وكثرة الغضب والتسلط. والأسود يدل على الأناة وحب العدل والتوسط بين هذين (....) والحاجب كثير الشعر يدل على العيّ وغث الكلام. فإن كان الحاجب ممتدا إلى الصدغ فصاحبه تيّاه صلف. ومن رقّ حاجبه واعتدل في الطول والقصر وكان أسود فهو يقظان فهم". (عبدالرحمن بدوي :1954 119).

وللشعر الكثير من الرمزية التي تخضع للعديد من التأويلات، حسب التكوين العلمي والثقافي وحتى الأيديولوجي. أثارت شعرتان أزمة سياسية في تركيا، فقد جاء في الأخبار: "تفجر جدل سياسي ساخن في تركيا، عقب اتهام الحكومة بمحاولة إرسال شعرتين، يعتقد أنهما من لحية الرسول (ص)، إلى الخارج سرا وعرضهما في الأردن ودبي. وكشفت وسائل الإعلام المحلية النقاب عن وجود الشعرتين في علبتين زجاجيتين في مطار إسطنبول بعد نقلهما من قصر "التوب كابي" في الشطر الأوربي من المدينة، والذي يحتوي على آثار تاريخية إسلامية مهمة يعود بعضها إلى عصر الرسول. ويقال إن السلاطين العثمانيين أحضروها إلى إسطنبول بالإضافة إلى 62 شعرة أكد مؤرخون أتراك أنها من لحية الرسول. وقد حافظت السلطات التركية على ما تبقَّى داخل غرفة مغلقة بعد أن سُرقت 50 شعرة منها على مدى مئات السنين. ومما زاد الجدل، أن الحكومة التركية لم تعط تفسيرًا لوجود الشعرتين في المطار". (الأهرام المصرية 14/10/2005).

زخر التراث الشعبي السوداني بكثير من المعتقدات الخاصة بالشّعر، وهي ذات صلة بالسياسة والسلطة والحروب. إذ يروي المؤرخ (بابكر بدري) أنه: "في معركة في يناير1885 في قتال مع الضابط محمد بك المك؛ هجم عليه عبدالله ود النور وطعنه بكرسة (حربة) في بطنه (... ...) وعند رجوعنا وجدنا الضابط ميتا، وكنت رأيته قد خرج مستعدا للموت إذ كان حالقا جميع شعر جسده وهذه علامة لمن يستعد للموت". (بدري،

ب. ت.، ص: 52). ويبدو أن هذه العادة كانت معروفة في السودان. وفي الغرب، نجد بعض الممارسات ذات صلة بالشعر، فعندما أخضع السلطان تيراب؛ حكم في عام (1768) قبيلة البرقد بعد حرب طويلة؛ حلق ذقن ملكهم، إذلالاً له، وحفظها مع آلات الملك. وقد صنعت من بعد فرشاة من شعر الغنم على هيئة الذقن لتُحمل على الحراب في الاحتفالات. ومن قبيل ما فعل سلطان الفور بذقن ملك البرقد، ما يُحكى عن علي باشا الشركسي؛ أحد حكام السلطان الأتراك؛ والذي قيل إنه حلق لحى وشوارب بعض مشايخ القبائل. وفي وصفه لعوائد البيت السعودي ذكر الرحالة الفرنسي شارل ديدير، أن العقوبة التي يخشاها الناس مثل خشيتهم للإعدام، كانت حلاقة ذقن المخطئ. وعند النوبة في شمال السودان، كانوا يحلقون شعر المرأة إذ أتت جرما كبيرا. وكان ذلك تأديبا بالغ الأثر. وقيل إن الكاشف أحمد كارا اشتكى من زوجته؛ وكانت بنت عمه؛ لأنها تركته في خطر وهم عائدون من الحج، فاستكبر الناس ذلك فحلقوا لها شعرها تقبيحًا لما ارتكبت من العار وطلّقها الكاشف. (أبو سليم، 18 :1992).

وفي دولة سنار (1504–1821) عند وفاة أحد المكوك (جمع مك) تجتمع القبيلة وتختار ملكا عليهم ويُحضرونه إلى الشيخ عجيب. حيث يقوم الشيخ بحلق رأس الملك المرشح ويتوجه بطاقية لها قرنان (الطاقية أم قرنين) ويُجلسه على الكرسي. ثم يخاطبه بلقب المك ويباركه، ويقبل المك يد الشيخ ويصلي له. ثم يأمر الشيخ بضرب النحاس، وهكذا يعلن تعيين المك على شعبه. (Trimingham,p. 87).

ولم يغب الشّعر عن سياسات الخلفاء الراشدين في مجالاتهم لإرساء قيم مختلفة لمجتمع جديد. فقد نفى عمرُ بنُ الخطاب، نصر بن حجاج الذي تقول المصادر إنه أحسن الناس وجها وشّعرا، وقد فتن نساء المدينة بجماله حتى ترنمت بحسنه امرأة بشعر:

ألا سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصرِ بْنِ حجاج؟

وسمعها (عمر) وهو يطوف في درب من دروب المدينة، فجزّ شعره، فزاد حسنا، فطلب منه أن يعتمّ (العمامة بالنسبة للرجل تقوم مقام الحجاب) ففتن النساء أكثر. فنفاه إلى البصرة، وفي البصرة فتن امرأة الأمير. (ابن عبدربه، العقد الفريد ج6 ص140. الأصفهاني، ج8 ص126. صوفية السحيري، 2008، ص49).

يُسمِّي (هادي العلوي) هذه العقوبة، بالتعذيب الأدبي"، كان يطبق على المخالفات التي لا ترقى إلى درجة الجنحة أو الجناية أو التي لا تمس أمن السلطة ومصالحها. ومن وسائله حلق اللحى أو نتفها- والنتف يجمع بين التعذيب الجسدي والأدبي معًا- وحلق الرؤوس. وكانت هذه العقوبات تُفرض أحيانا على الزعران والزنادقة. ومنها قص الشعر الطويل، على المراهقين أو الفتيان اللاهين. وقد تَبَاهَى ابنُ الجوزي في "القُصَّاص والمذكِّرون" بحملة قادها في بغداد ضد هؤلاء: "فقصوا فيها أكثر من عشر آلاف طائلة؛ أي خصلة طويلة". (هادي العلوي: فصول من تاريخ الإسلام السياسي. نيقوسيا، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، 1995، ص304).

هناك الكثير من القصص في التاريخ والثقافات، التي تقوم على الشَّعر. فمن المأثور تخيّر اثنين من الملائكة بين عذاب الدنيا والآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فهما معلقان بشعورهما في بئر بأرض بابل يأتيهم السحرة فيتعلمون منهما السحر. كذلك يقال إن المصلح الديني (بوذا) كان يسهر كثيرا، بسبب الإرهاق والجوع والعطش.. ولأنه يريد أن يرتفع عن كل رغباته الحسية. وطبيعي ان يقهره الجوع والتعب فينام. وكان يضع أمامه الأشواك والأدوات الحادة، حتى إذا سقط من التعب ارتطم بما يرده بعنف إلى اليقظة. وآخر ما اهتدى إليه هو أنه اقتلع رموشه وجفنيه.. فلا نوم حتى الموت.. ويقال إن رموشه هذه وجفنيه قد أخرجت من الأرض نباتات خضراء هي التي عُرفت فيما بعد بنبات الأفيون". (أنيس منصور، الأهرام، 2009/8/2).

معتقدات الشّعر الأحمر:

أثار الشعر الأحمر؛ بسبب اختلافه؛ خيال الكثيرين ونُسجت حوله القصص والأساطير والخزعبلات أيضا. وقد جذب- على وجه الخصوص- اهتمام الفنانين والمبدعين. وليس بالضرورة أن يكون ذلك إعجابًا، ولكن كموضوع مشوق ومبهر وغامض. ومن أسباب ذلك، أنه نادر وغير منتشر. إذ يُوجد الشّعر الأحمر بنسبة1-2% من سكان العالم، وبنسبة2-6% من بين شعوب أُوربا الغربية والشمالية، وأقل من ذلك بين الشعوب الأخرى. ويعيش أغلب أصحاب الشعور الحمراء في أقصى شمال وغرب أوربا، وينتشر

أكثر بين الشعوب الجرمانية والسلتية. ففي أسكتلندا أعلي نسبة، إذ يمثلون13% من السكان، وتحتل أيرلندا المرتبة الثانية بنسبة 10%. وتبلغ نسبة أصحاب الشعور الحمراء في الولايات المتحدة الأمريكية 2-6% مما يعني 6 إلى 18 مليونًا، وهي الأعلى في العالم. كما يوجد بين اليهود الإشكيناز، بل كان الأوربيون بالذات في إيطاليا وإسبانيا ينسبون الشعر الأحمر لليهود. ونلاحظ أن الكُتَّاب من شكسبير حتى ديكينز يُماهون الشّعر الأحمر باليهود. واستمرَّت هذه النمطية في أوربا الشرقية وروسيا. ويوجد هؤلاء في أغلب البلدان الأوربية بنسب متفاوتة. كما نجدهم بين (بربر) المغرب والقبائليين في الجزائر. وتعد (لالا سالمة) زوجة (محمد السادس) ضمن أصحاب الشعور الحمراء، مثل عبد الرحمن الأول أو الداخل (صقر قريش) (731-788). وقد توجد حالات في شمال الهند وشمال الشرق الأوسط؛ بالذات في إيران؛ ويتراوح لونه من البرتقالي إلى النحاسي.

في التاريخ القديم، جاء في مرويات الكتاب الإغريق القدامى، ذكر للشعوب ذات الشعور الحمراء. ففي نص للشاعر (زينوفانس، القرن السادس قبل الميلاد) يصف (التراقيين) بأنهم أصحاب عيون زرقاء وشعور حمراء. ويصف (هيرودوتس) شعب (البدني) (Budini) في منطقة أوكرانيا الحالية بأنه يغلب عليهم الشعر الأحمر. ويصف (كاسيو ديو235-150 Dio Cassius قبل الميلاد) الملكة (بوديكا) حاكمة (إيسيني-قبيلة بريطانية في شرق أنجليا- نورفولك الحالية، خلال القرن الأول الميلادي) بأنها: "طويلة وذات مظهر مروع بشعرها الأحمر الغزير المسدل على كتفيها". أما المؤرخ الروماني (تاكتوس؛ 56-117 الميلادي) فقد علق على الشّعر الأحمر والأطراف الضخمة لسكان (كالدونيا) وقد ربطهم بقبائل (الغال) ذات الشعور الحمراء، المرتبطة بصلة مع الجرمان والأراضي المنخفضة القديمة (Belgic). وفي الإلياذة يوصف شعر (أخيل) بأنه أشقر أو ذهبي وأحيانا أحمر أو مصفر. أما ابنه الذي يحمل اسم (Pyrrhus) الذي قد ينسب لشعره الأحمر. ويوصف (ثور) إله الإسكندنافيين بصاحب الشعر الأحمر. وترسم (مريم المجدلية) دائما بشعر أحمر. (الصورة) ويفترض أن عيسو (Esau) مغطى الجسم بالشعر الأحمر. وكذلك الملك (داود) كما ورد في العهد العبري (admoni). ويُقدَّم (يهوذا الإسخريوطي) بشعر أحمر في الثقافة الإسبانية وفي أعمال شكسبير، لتأكيد الصورة السالبة. ويمتد التعصب إلى القطط والكلاب ذات نفس اللون. وهناك اعتقاد بين الفلكيين

بأن الكوكب (مارس) أو الكوكب الأحمر، الذي يُحتمل أن يكون مرتفعا فوق الأفق الشرقي أو الطالع حسب مصطلح المنجمين؛ والذي يعتقد بتأثيره على مظهر الشخص، ويتزامن وضعُه ذلك مع ميلاد صاحب شعر أحمر أكثر من الحالات العادية الأخرى.

أظهرت الآثار في آسيا، وجود الشعر الأحمر بين (التوكاريين) القدامى، وهي قبائل عاشت في حوض (تارم Tarim) في أقصي شمال غرب الصين. والمومياوات القوقازية في (تارم) التي ترجع إلى الألفية الثانية قبل الميلاد؛ كانت ذات شعور حمراء. كما وجد الشعر الأحمر بين قبائل وعوائل معينة بين البولينزيين، والذي يعتبر الشعر الأحمر في ثقافتهم علامة انتساب لأسلاف من مرتبة عليا، ودلالة قدرة على الحكم.

وقد استخدم مصطلح الشعر الأحمر (redd hede) منذ عام 1510، على الأقل. وتراوحت النظرة له بين الاستهزاء والإعجاب، ولكنها لا تخلو من النمطية. وكان الشعر الأحمر من علامات السحر في أوربا المسيحية، وكان يعتبر في نظر كاشفي السحر علامة ذنب. وبغَضِّ النظر عن صحة الاعتقاد؛ فالشعر الأحمر يُثير عدم الثقة والشك. وفي كتاب: أمثال ألفرد (The Proverbs of Alfred)؛ الذي كان متداولا في القرن الثالث عشر، يُحذر من اتخاذ صاحب الشعر الأحمر كصديق. ونجد في كتاب: سر الأسرار (secretum secretorum) من العصور الوسطى، نصيحة تحذر من اتخاذهم ناصحين أو مستشارين. وفي مخطوط من القرن الرابع عشر يقول بأنه من النادر أن تجد مخلصين في الصداقة بين أصحاب الشعر الأحمر. وتتوافق هذه النظرة مع فكرة أن (يهوذا) خائن المسيح كان أحمر الشعر. وكثيرا ما يظهر (يهوذا) بشعر أحمر أو لحية حمراء في رسوم العصور الوسطى. هذا وقد وردت إدانة مسيحية مبكرة للقديسة (جيروم) وهي تنصح بناتها المراهقات: لا تصبغن شعوركن بالأحمر، فهذا نذير نيران الجحيم (themythsandhistoryofredhair.co.uk).

تعطي بعض المعتقدات صفات سحرية لهم، إذ من الممكن صناعة السم من دهن الرجل صاحب الشعر الأحمر. كما روي عن القسيس (ثيوفيلوس) أن دم الشاب أحمر الشعر يُحتاج له في تحويل النحاس إلى ذهب. كما استخدم بول الأطفال حُمر الشعر لرسومات زجاج النوافذ الملونة. وفي مراحل الطب المبكرة ساد اعتقاد بأن الشعر الأحمر علامة المزاج الدموي. وفي الممارسة الطبية الهندية المسماة (Ayurveda) أو الطب

البديل، يُصنَّف أصحاب الشعر الأحمر ضمن مزاج الـ (Pitta) وهو مزج النار مع بعض الماء، وناسه منظمون، طموحون ولكنهم سريعو الإثارة، منافسون، مسيطرون، ولهم ملكات قيادية.

ومن بين كل الأوربيين؛ للفرنسيين أدنى فكرة عن الشعر الأحمر. فمازال تعبير شَعْر يهوذا مستخدمًا منذ أواخر القرن التاسع عشر للتعبير عن سمات سلبية. ويروى أن 150 ساحرة استخدمن في التجديف وصف مريم العذراء بحمراء الشعر (la Roussa).

يسود اعتقاد عام بأن أصحاب الشعور الحمراء هم ذوو مزاج ملتهب وألسنة حداد. ويلاحظ هذا المعتقد في الكتابات الأدبية بالتحديد. ويعتبر بعض الباحثين أن (شارلس ديكنز) (1812–1870) قد يكون من أكثر الكتاب ازدراءً لأصحاب الشعور الحمراء. وهو كثيرا ما يستخدم الشعر الأحمر والنمش كعلامات لشخصيات الغدارين أو الخونة. والمثال الكلاسيكي لهذا التحيز هو شخصية (Fagin) في قصة (أوليفر تويست)، فيصفه: "كان يقف أمام النار ممسكا بشوكة طعام، بوجه نذل ومثير للاشمئزاز، وشعر أحمر ملبد". وفي إحدى المرات احتج على اللوحة التي رسم فيها (J. E. Mhllais) صورة للمسيح بشعر أحمر.

كان كتَّاب آخرون أقل قسوة على أصحاب الشعور الحمراء، واكتفوا باعتبارهم كائنات مختلفة بلا أحكام. فقد كتب (P. G. Wodehouse) (1881–1975) في إحدى المرات: "سأتردد كثيرا بأن أوصى أن تكون شريكة الحياة، فتاة ذات شعر أحمر فاقع، الشعر الأحمر– في رأيي– خطير". أما (جوناثان سويفت) (1667–1745) في (رحلات جليفر) فيقرر: "من الملاحظ أن أصحاب الشعور الحمراء من الجنسين هم أكثر شهوانية وإيذاءً من الآخرين، ويفوقوهم في القوة والنشاط". ولكن الأديب الوحيد الذي مدح الشعر الأحمر هو (مارك توين) (1835–1910)، وليس غريبا فقد كان هو نفسه أحمر الشعر. انصب ثناؤه على أن اللون الأحمر استثنائي مقابل العادي.

تتعدَّد مقاربات أصحاب الشعور الحمراء وتتنوع، ولكن في كل الأحوال تؤكد هذه المقاربات فكرة الاستثناء والاختلاف. ففي Anne of Green Gables توصف الكاتبة (Lucy Maud Montgomery) البطلة ذات الشعر الأحمر بأن "مزاجها يماثل شعرها". وفي (TheCatcher in the Rye) يلاحظ Holden Caulfield أن الناس

ذوي الشعور الحمراء يُفترض أن يُصيبهم الجنون بسهولة. ولكن (Allie) أخوه المتوفَّى لم يحدث له ذلك، رغم شعره شديد الاحمرار. ومن المعتقدات أيضا أنهم جامحون في شهوتهم الجنسية، فالشَّعر الأحمر علامة للشهوة الجنسية الحيوانية والانحطاط الأخلاقي. وفي حكايات (الأخوان جريم) يُصوَّر رجل متوحش أحمر الشعر، ليمثل روح غابة الحديد. وفي ترجمة (Montague Summers) لكتاب: Malleus Maleficarum أو مطرقة الساحرات، الذي ظهر في ألمانيا 1486 من تأليف اثنين من محققي محاكم التفتيش، يُلاحظ أن علامة الساحرة؛ أو الإنسان الذئبي أو الهامة التي تمص الدماء؛ هي الشعر الأحمر والعيون الخضراء خلال العصور الوسطى. وكان الشعر الأحمر مظهرًا لعلامة السحر في تلك الحقبة، وكان باستمرار دليلا على الذنب لدى صيادي الساحرات. وغالبا ما يُنمَّط ذوو الشعور الحمراء باعتبارهم غير جديرين بالثقة. وسبق أن أشرنا إلى كتاب أمثال ألفرد (The Proverbs of Alfred) والذي كان متداولاً في القرن الثالث عشر، ويُنسب إلى ملك بريطانيا (ألفرد الأعظم) (849–899) في العصور الوسطى، فهو يُحذر من اتخاذ ذوي الشعور الحمراء أصدقاء. ويعتبر أصحاب الشعور الحمراء بظلال غريبة معينة، هم بالتأكيد من الهامة. ويروي باحثون أنه من الملاحظ أن القرابين البشرية التي تقدم على قبر (أوزير) هم ضحايا من رجال ذوي شعور حمراء، تم حرقهم، ويبعثر رمادهم بعيدا وفي مساحات شاسعة بمراوح للتذرية. ويعتقد أن ذلك يخصّب الحقول ويضاعف غلة المحصول، فالشعر الأحمر رمز للثروة الذهبية للقمح. ولكن هؤلاء الرجال يسمون التايفونيين وهم لا يمثلون (أوزيريس) ولكن يمثلون خصمه (تايفون) صاحب الشعر الأحمر. (themythandhistoryofredhead).

علقت الكاتبة (روث ملينكوف) في كتابها: (المنبوذون) (The Outcasts) على هذا الانحياز باعتباره نتاج وضعية أصحاب الشعور الحمراء كأقلية في المجتمع. فأصحاب الشعر الأحمر، أو الذقن الحمراء، أو البشرة الضاربة للحمرة، يعتبرون مثيرين للشك أو عدم النقاء، أو خطرين، لأنهم مخالفون للمقاييس السائدة. والسبب يعود إلى أنهم أقلية في الخصائص بين كل المجموعات العرقية والإثنية حتى بين الأيرلنديين الذين يُعتقد أنهم– عموما– أصحاب رؤوس حمراء.

كانت الملكة اليزابيث الأولى (1533–1603)، حمراء الشَّعر؛ وبالتالي صار الشعر الأحمر موضة في العصر الإليزابيثي في إنجلترا. كذلك الإمبراطورة أوجيني (1826–1920) زوجة نابليون الثالث. ومجددا في هذا العصر صار الشعر الأحمر خاضعا لاتجاهات الموضة، وبين المشاهير مثل: نيكول كيدمان، Alyson Hannigan وMarcia Cross وChristina Hendricks وGeri Halliwell حيث يمكن أن يعززن مبيعات صبغة الشعر الحمراء.

(www.themythsandhistoryofredhair.co.uk/heresy.html).

في أحيان كثيرة؛ ومع تقدم العمر؛ يميل لون الشعر الأحمر إلى أن يكون قاتما أو بني اللون أو يفقد لمعانه. وهذا ما حدا بالبعض للربط بين الشعر الأحمر والشبابية المرغوبة. ولذلك، في عدد من البلدان مثل: الهند، إيران، بنغلاديش، وباكستان، تستخدم الحناء والزعفران في صبغ الشعر لإعطائه شكلا أحمر ولامعًا.

يُبدي كثير من الرسامين انبهارهم بالشعر الأحمر. واللون تيتان، وهو درجة من اللون الأحمر يجمع بين البني والبرتقالي، وقد أخذ اسمه من الرسام (تيتان: 1490–1576) الذي كثيرًا ما رسم نساءً بشعور حمراء. وفي مطلع عصر النهضة، صوّر الفنان (ساندرو بوتشيللي 1445–1510) ربة الجمال والحب والخصب؛ الإلهة الأسطورية (فينوس) في لوحته الشهيرة "ميلاد فينوس" بشعر أحمر. وعرف عدد من الرسامين المشهورين برسم ذوات الشعر الأحمر، ومن بينهم ما قبل الروفائيليين Edmund Leighton وModigliani وGustav Klimt.

في بريطانيا تستخدم كلمات (ginger) أو (ginga) لوصف أصحاب الرؤوس الحمراء، وهي ليست بالضرورة إساءة، وألحقت بها مصطلحات مثل (gingerphobia) ويوحي بكراهية لأصحاب الشعور الحمراء، أو gingerism وفيها تعصب ضد أصحاب الرؤوس الحمراء، وهي مستخدمة في الإعلام البريطاني. وقد تدرج في نقاشات العنصرية رغم عدم إثبات جرائم تفرقة وكراهية تجاه: رأس الجزرة، كما يسمون أحيانا. ولكن إحدى المحاكم عوضت إحدى النساء؛ التي تعرضت للتحرش والاستغلال الجنسي بسبب شعرها الأحمر. كما أن إحدى الأسر قد أجبرت على الرحيل مرتين بعد تعرضهم للمضايقات والكراهية. وفي عام 2003 طعن شاب في العشرين من عمره لأنه (ginger). وفي

2009 انتحر تلميذ بريطاني بسبب التخويف الذي تعرض له بسبب شعره الأحمر. ويرى المغني البريطاني (Mick Hucknall) أنه تعرض مرارًا للتعصب أو الوصف بأنه دميم، بسبب لون شعره، لذلك لابد من وصف الـ (Gingerism) كشكل من أشكال العنصرية. ويقدم التلفزيون في بريطانيا وأمريكا بعض البرامج التي تسخر من أصحاب الشعور الحمراء. وفي أستراليا، نجد في العامية تستخدم كلمة (rangas) لوصف أصحاب الشعور الحمراء، وهي كلمة مستنبطة من صفة القرد أحمر الشعر (الاورقتان) وهي ذات دلالات تحقيرية.

يقام في مدينة بريدا (Breda) في هولندا؛ في أول نهاية أسبوع من شهر سبتمبر؛ مهرجان ليوم أصحاب الشعور الحمراء. ويستغرق يومين حيث يتجمع أصحاب الشعور الحمراء الأصيلة، ويركز على الفن المرتبط باللون الأحمر. وتتضمن الفعاليات أثناء المهرجان المحاضرات والورش والمواكب.

ظهرت صفة (أشقر) في القاموس الإنجليزي لأول مرة في عام1481 لتصف لون الكستناء في المنتصف بين الذهبي والفاتح. وهناك نظرية تقول بأن الشعر الأشقر صار سائدا في أوربا الشمالية حوالي عام 3000 قبل الميلاد، في منطقة (ليتوانيا) وانتشرت الظاهرة سريعا نتيجة التزاوج.

هناك ادعاء "علمي" زائف يظهر دوريًا في الإعلام منذ 1865 وآخر رواية كانت عام 2002؛ وتقول بأن منظمة الصحة العالمية أو بعض الخبراء نشروا تقريرا يقول إن أصحاب الشعور الشقراء سوف ينقرضون عام 2202. وهذا التقرير خُدعة طالبت منظمة الصحة العالمية إثباته. ويقوم افتراض الانقراض على تراجع الجينات، وأن آخر أشقر سيولد في فنلندة عام 2202.

الشّعر والرمزية:

يتنافس الأنثروبولوجيون ومتخصصو التحليل النفسي حول تفسير الرموز التي ينتجها الإنسان في ثقافاته المختلفة، أو في سلوكه اليومي، أو تظهر في أحلامه وعقله الباطن. يبحث عنها الأنثروبولوجي في الطقوس والتعبيرات الثقافية الشخصية والجماعية. بينما

ينقب عنها المحلل النفساني في الأحلام وطبقات اللاشعور والعقل الباطن. وهناك مشكلة مركزية تواجه الجميع في خصوص تأويل وتفسير الرموز والأفعال الرمزية. إذ يصعب على الممارسين أو المشاركين؛ في كل مجتمع؛ تقديم معنى واضح وجلي لمعني الرموز الخاصة بهم. لذلك يمكن للرمز الواحد أن يمنح معاني متنوعة ومختلفة من مجتمع إلى آخر. وقد طرحت فرضيات معينة في هذا الاتجاه، أهمها تلك التي تقول إن المعاني التي تنسب للرموز هي ذات صلة بأعمال العقل الباطن، والتي يفترض أن تكون متشابهة لدى أفراد كل ثقافة، وذلك لخضوعها لميكانيزمات الكبت والتسامي. أما الفرضية الثانية، باعتبار الاهتمام المشترك في المجتمعات بأمور البقاء، وطبيعة البيئة الفيزيقية، والتناسل، الدور الاجتماعي للنوع، الشباب والكهولة، النظام والفوضى، وغيرها من المفاهيم الأساسية. لذلك، فإن بعض الرموز والأفعال الرمزية، ملائمة بطبيعتها للتعبير عن هذه المفاهيم، وبالتالي تتسم بعموميتها ووجودها في الثقافات المختلفة، وتحتفظ بنفس المعني. وهنا يفسر معنى الرمزية باختبار الطريقة التي يضع بها الناس مفاهيم تداعيات الكيانات في العالم الحقيقي. ومن هنا، فإن الفرضية الأولى السابقة، ترى أن الرموز هي "عن" العقل الباطن، بينما الفرضية الثانية تعتبرها عن العالم ومكان الإنسان فيه. هذا وقد طور الأنثروبولوجي (ليتشLeach) في مقال له بعنوان: "الشّعر السحري" (Magical Hair 2000: 177)، نظرية للمعنى الرمزي للشَّعر استندت على الفرضية الأولي. (Hallpike,pp134-5) .

يبدأ (ليتش) بالقول إن كل نظرية التحليل النفسي قائمة على مغالطات واضحة، ولكن مع ذلك فهي تضيء أحيانا بطريقة أو بأخرى. يرتبط رمز الشّعر كثيرا بالأحلام واللاوعي أو العقل الباطن، لذلك وجد فيه المهتمون بالتحليل النفسي مجالا خصبا وممتعا للدراسة. ترى النظرية الفرويدية في الرأس رمزًا قضيبيا، ويرمز الشعر إلى المني، وقص الشعر في الفرويدية إخصاء رمزي، وفي بعض الحالات للرأس والشعر تداعيات جنسية ظاهرة. ويعتمد الفرويديون كثيرًا على تأويل وتفسير الأحلام. فعلى سبيل المثال، أن ترى الشّعر في حلمك، فهذا يعني الحيوية الجنسية، الإغواء، الشهوانية، الخيلاء، وصحة الاتجاهات. فلو كان الشعر معقودا أو متشابكا فهذا رمز عدم اليقين وأنك لن تكون قادرا على التفكير المستقيم. أما الحلم بقص الشّعر، فيعني أنك سوف تتعرض لفقدان القوة،

وقد تشعر بأن شخصا ما يراقبك. أو قد تكون في محاولة أن تُعيد تشكيل فكرك وطموحاتك أو تريد أن تجتث الأفكار غير المرغوبة. وفي حالة تمشيط الشعر أو صقله أو تصفيفه، فهذا يوحي بأفكار جديدة أو نظرة جديدة أو مظهر آخر أو طريقة مختلفة للتفكير. والحلم بالشعر الطويل إشارة لقرارات حاسمة، أو تركيز على بعض الخطط أو المواقف. وأن تحلم بفقدان الشعر يعني الشعور بتقادم العمر وفقدان الحيوية والرغبة. والحلم بأن شخصا يشم شعرك إشارة إلى الشهوانية والرغبة الجنسية. (راجع هذا الجزء في الانترنت). وهناك الكثير من الرمزية في الحلم، منها: أن ترى الشعر في حلمك قد يوحي بأن بعض الأفكار القوية تحوم حولك ولكن القوة العقلية القوية قد توقفها للاختبار. والحلم بالشعر الرمادي أو الفضي قد يوحي بالأفكار الحكيمة. أن تحلم المرأة بأن لديها شعرًا جميلاً؛ بينما الواقع خلاف ذلك؛ فهذا يعني الإهمال في شخصيتها. والرجل حين يحلم بفقدان شعره، فهذا يوحي بأن الكرم الشديد سوف يُدخله في بيت الفقراء (الفقر).

وفي العقيدة اليونانية والرومانية، أن الرأس هو مصدر المني في شكل سائل ذي صلة بالمخ والنخاع الشوكي (Cerebrospinal) ويشير الشعر للحيوية الجنسية. ويعتقد البنجاب في الهند أن النساك الحقيقيين، قادرون على تخزين السائل المنوي ويركزونه في شكل قوة روحانية في أعلي رؤوسهم. وللشعر الكثير من الرمزية التي تخضع للعديد من التأويلات، حسب التكوين العلمي والثقافي وحتى الأيديولوجي. ومن الأمثلة، تترك المرأة لدى (Chickeri)– في وسط البرازيل– شعرها طويلا بعد طفلها الأول فقط. وفي مجتمع (Dobuan) في غرب الباسفيك، يقوم الزاني، أمام الناس، بقص شعر المرأة التي أغواها، إذا أراد أن يتحدى زوجها. وفي هذا المجتمع، العناية بالشعر ذات خدمة متبادلة بين الأزواج ومرتبطة بالعلاقة الجنسية.

ويرى باحثون في التحليل النفسي، في قص الخصلة، عنصرًا ساديا؛ أي تلذذا بالألم غير ظاهر أو معلن. وتناقص العنصر السادي في قص الخصلة والذي كان يتم بقدر من العنف. ولكن مع عشرينيات القرن الماضي، تزايد ظهور الخصلة، وربطت بميول شاذة. ففي زمن سابق، كانت الخصلة موضة رجالية وليست نسائية. وقد أضيف للشكل معنى رمز قضيبي (phallic) وبالتالي ما تثيره الخصلة لدى المرأة هو العنصر الرمزي القضيبي. وهذا الإدراك يرتبط أكثر بالعقل الباطن ولا نحاول تفسيره بطريقة عقلانية

صرفة. فهو يفهم ضمن ضرورات الجنسية الخاصة غير القابلة للتوضيح في حالات كثيرة. (Damaskow,1972: 11).

تعرضت النظرية الفرويدية لكثير من النقد بسبب المبالغة في الإسقاطات الجنسية فيما يتعلق برمزية الشعر. إذ يرى البعض أن القوة الجنسية هي جانب واحد للحيوية والقوة الجسمانية والحيوانية عمومًا. فقوة شمشون مثلا، تكمن في شعره، ولكن لا توجد أي دلالة جنسية؛ مهما كانت لارتباط ما؛ بأن قص الشعر يعادل الإخصاء. وكل حالات قص الشعر في الحج، والتجنيد للجيش، والرقيق في الماضي؛ لا ترمز إلى الإخصاء. ومن ناحية أخرى، نجد أن الزهاد وبعض المتعبدين يطلقون شعورهم، ولكنهم يمتنعون عن كل العلاقات الجنسية، وكذلك المثقفون ذوو الشعور الطويلة. وهذا يعني عدم وجود علاقة إيروسية مباشرة، فالنظرية الفرويدية لا تسندها حقائق إلا في حالات قليلة.(Eliade,p. 111).

يميل كثير من الناس الذين يعانون من مرض عقلي، إلى عادات أو لازمة، أي طريقة مميزة في التصرف (mannerism)، منها على سبيل المثال: قطع خصلات كبيرة من الشعر عشوائيا، أو صبغ شعرهم باللون الأسود. ومما يُعد دلالة بائنة على الإحباط، ظاهرة فقدان الشعر في أماكن مختلفة من الرأس. ومن غير الطبيعيين، هناك من لا يهتمون بشعرهم بطريقة جيدة، فيقومون بصبغ الشعر بأشكال متنوعة. ومن مظاهر ارتباك الشخصية، أن يبرموا شعرهم، أو ينتزعوا شعرهم وتسمَّى هذه العادة: (trichotillomania) وهو مصطلح صكه طبيب أمراض جلدية فرنسي عام 1889 ليصف الرغبة الجامحة والتي لا يمكن مقاومتها، التي رآها عند بعض المرضي لاقتلاع شعورهم. والكلمة مأخوذة من الإغريقية (Thrix) تعني شعر، وينزع أو يقتلع (Tillein) وكلمة (Mania) وهي تعني: جنون أو نوبة من الجنون. وهذه الكلمة قد لا تكون صفة دقيقة في وصف الحالة، فمن يقومون بهذا السلوك ليسوا تمامًا مجنونين أو معتوهين أو سيكوباتيين، ولكنهم يصنفون في الأمراض النفسية ضمن: "اضطراب في ضبط النزوة". (www.crystalinks.com/hair.html).

يجمع بعض الأنثروبولجيين والدارسين، الأساطير في عدد من النماذج أو كوكبة أو منظومة. وهناك صورة شائعة للشّعر في كوكبة تسمى (المياه السوداء) أو رمز الماء

العدائية أو الحزينة. وتقابلها المياه الضاحكة، أو ماء الينابيع الصافية والمرحة. ويعلق (دوران) بأنه عندما يتكلم (باشلار) عن "عقدة أوفيليا" يركز على شعر الفتاة الغارقة؛ الذي يطفو ليصبح امتدادًا لصورة الماء. ويضيف بأن عُرف خيول بوزيدون ليس بعيدا عن شعر أوفيليا. ثم إن (باشلار) لا يجد عناءً لكي يبين لنا شيوع رمز التموج عند شعراء القرن السابع عشر، وعند (بلزاك) و (إدغار آلان بو) الذي يحلم بأن "يغرق في حمام من شعر آني".

يورد (باشلار) ملاحظات شيقة وهامة من منظور دينامي، حين يقول إن حركة الشّعر وليس شكله هي التي تولّد صورة المياه الجارية، فعندما يتموج الشّعر يعطي صورة الماء وبالعكس. والموج يمثل حركة الماء، وهو أيضا صورة أقدم النقوش الهيروغليفية التي اكتشفت على آنية قديمة. ويستمر (دوران) في تحليله الممتع: "وفي الشّعر أيضا يرتبط تموج الشّعر بالزمن، بذلك الزمن الهارب الذي هو الماضي. ألسنا نجد في الغرب كثيرا من الاعتقادات الشعبية التي تصنع من خصل الشَعر حجابا للذكرى؟ إذا كان ربط الشّعر بالوقت يُفهم بسهولة سواء لكون الجهاز الوبري والشعر يشكلان رمز الزمنية والموت كما في صور أجداد البامبارا، أو على العكس لكون الزمن يبدو كأقوى منتزع للشّعر، فإن ذلك لا يقلل من صعوبة تبيان كيفية تأنيث الشعر، إذ إنه ليس من مكان في العالم سوى الغرب يرمز فيه الشّعر للعضو التناسلي للمرأة". (74 :1991).

ورد في تفسير الأحلام لـ(ابن سيرين) العديد من الرموز والتفسيرات المرتبطة بالشّعر. فقد يفسر حلم شعر الرأس بأنه يشير إلى الحصول على مال وطول عُمر. وأمّا الجمة (مجمع شعر الرأس) فتختلف باختلاف صاحب الرؤيا، فإن رآها صاحب صلاح على رأسه فهو زيادة ووقاية وهيبة له، وإن رآها غني فهو ماله، وإن رآها فقير فهي ذنوبه. وحسن شعر الرأس شرف وعز، فإن رأى شعره جعدا وسبطا فإنه يشرف ويعز، فإن رأى شعره الجعد سبطا فإنه يتضع ويصير دون ما كان، وإن رآه سبطا طويلا متفرقا فإن مال رئيسه يتفرق، وإن كان ناعما لينا فإنه زيادة مال رئيسه. (ص84). وكان (ابن سيرين) يكره بياض الشعر للشاب، ويقول: "الشيب الافتقار والهم إذا طال الشعر، فإن رأى ذلك فقير اجتمع عليه مع فقره دين وربما حبس. وقيل: إن الشيب في التأويل زيادة وقار ودين وقيل هو زيادة عُمر لقوله تعالى: ﴿ثم لتكونوا شيوخا﴾. (غافر: 67).

وأما المرأة فإذا رأت شيب جميع رأسها، دلت رؤياها على فسق زوجها، فإن كان زوجها صالحا فإنه يغايرها بامرأة أخرى أو جارية، وإن لم يكن كذلك فإنه يصيبه منها غم أو حزن. أما سواد شعر المرأة فيدل على شيئين أحدهما محبة زوجها لها، والثاني استقامة أحوال زوجها، فإن رأت امرأة كأنها كشفت شعرها فإن زوجها يغيب عنها، فإن رأت كأنها لم تزل مكشوفة الرأس فإن زوجها لا يرجع إليها، وإن لم يكن لها زوج لم تتزوج أبدا، فإن رأت شعرها كثيفا وأبصر الناس ذلك منها فإنها تفتضح في أمر.

أما حلق الشعر للرجال في الحج وتقصيره فهو في التأويل: أمن وفتح وقضاء دين وفرج؛ لقوله تعالي: ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين مُحلقين رؤوسكم ومقصّرين لا تخافون﴾. (الفتح: 27) . وفي غير الحج كذلك إلا أنه في الحج أقوى. وإذا كان صاحب الرؤيا من أهل الصلاح ضعف بطشه.

وحُكي أن رجلا قال: رأيت رأسي حُلق، وخرج من فمي طائر، وأن امرأة لقيتني فأدخلتني في فرجها، ورأيت أبي يطلبني طلبا حثيثا ثم حبس عني. فقصها على أصحابه وقال: "إني تأولتها: أما حلق الرأس فوضعه، وأما الطائر الذي خرج مني فروحي، والمرأة التي أدخلتني في فرجها فالأرض تُحفر لي وأغيب فيها، وأما طلب أبي إياي ثم حبسه عني فإنه يجتهد أن يصيبه ما أصابني". فقتل صاحب الرؤيا شهيدا.

وتقول بعض تفسيرات (ابن سيرين) إن أي امرأة تحلم أنّ شعرها محلوق يخلعها زوجها أو تموت. فإن رأت كأنّ زوجها حلق رأسها أو جز شعرها في الحرم دلت رؤياها على قضاء دينها وأداء أمانتها. وإن رأت أنّ زوجها حلق رأسها في غير الحرم دلت رؤياها على أنّه يحبسها في منزله فإنّ الطائر يبقى في عشه إذا قطع جناحه. وقيل إنّ حلقه إياها يدل على هتك سترها. وإن رأت كأنّ إنسانًا دعاها إلى جَز شعرها فإنّه يدعو زوجها إلى غيرها من النساء سرًّا منها، ويقع بينها وبينِ ذلك الإنسان عداوة وشحناء. وقيل من رأى ذوائب امرأة مقطوعة فإنّها لا تلد ولدًا أبدًا. (ص85).

يرتبط رمز الشّعر كثيرا بالأحلام واللاوعي أو العقل الباطن، لذلك وجد فيه المهتمون بالتحليل النفسي مجالا خصبا وممتعا للدراسة. إذ ترى النظرية الفرويدية في الرأس رمزا قضيبيا، ويرمز الشعر إلى المني، وقص الشعر في الفرويدية إخصاء رمزي، وفي بعض

الحالات للرأس والشعر تداعيات جنسية ظاهرة. وفي العقيدة اليونانية والرومانية، الرأس هو مصدر المني في شكل سائل ذي صلة بالمخ والنخاع الشوكي (Cerebrospinal).

وقد سبق أن ذكرنا أن النظرية الفرويدية تعرضت لكثير من النقد بسبب المبالغة في الإسقاطات الجنسية فيما يتعلق برمزية الشعر. إذ يرى البعض أن القوة الجنسية هي جانب واحد للحيوية والقوة الجسمانية والحيوانية عمومًا.

ويقدم (Berge) وصفا من منظور التحليل النفسي- الفرويدي لنزاع بدايات القرن السابع عشر حول رمزية الشّعر الطويل كصراع بين الليبيدو الجنسي والأنا الأعلي.

(Libido v Super-ego ويشير الشعر للحيوية الجنسية في كثير من الثقافة البشرية. ومثال ذلك، يعتقد البنجاب في الهند أن النساك الحقيقيين، قادرون على تخزين السائل المنوي ويركزونه في شكل قوة روحانية في أعلى رؤوسهم.

خلال الحرب الأهلية الإنجليزية (42-1651) كان طول الشعر رمزا للخلاف القائم بين الفرسان Cavaliers، والمتشددين أو أصحاب الرؤوس المستديرة Roundheads ذوو شعور قصيرة ويعتبرهم المتشددون؛ وهم عادة لهم شعور قصيرة؛ فاسقين وأقل تدينا، ويستغرق الفرسان، ذوو الشعور الطويلة، في حياة النساء والخمر. ويعبّرون- عموما- عن بواعثهم الجنسية. بينما أصحاب الرأس المدورة أو أصحاب الشعور القصيرة، فهم تطهريون (Puritans).